الفجر الكاذب

مطبوعات مكتبة مصر

الفجر الكاذب

نجيب محفوظ

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كأنما هو سباق بينى وبين قرص الشمس المائل نحو الغروب . بلغت شارع ابن ياسر المكلل بأشجار الأكاسيا على جانبيه . تستبق فوق أديمه السيارات فى تيارات متدفقة وتقوم فى موقع من وسطه العمارة بمدخلها الواسع الممتد وضوئها المشع من داخل الجدران الشفافة . رفعنى المصعد إلى الدور الثامن . ضغطت على الجرس ففتحت الشراعة عن وجه الخادم . تقدمنى إلى الثوى المكون من ثلاث حجرات متصلة فجلست على مقعدى فى الأعماق . أزاح الرجل ستارة وفتح نافذة فتدفق هواء الخريف . وهلت سيدتى فى فستان أزرق آية فى البساطة والرقة وشبشب أزرق مذهب السير ، ترنو إلى بعينيها النجلاوين الثاقبتين وأنا أتعجب من صفاء بشرتها . سألتنى عما أحب أن أشرب فطلبت القهوة فقالت إنها سلت بعض فراغها بصنع شيكولاطة بالبسكوت ، قلت إذن أتناول واحدة ، وأمرت لى بما طلبت . ونظرت فى وجهى مليا وقالت :

ــ واضح أنك لم تتقدم خطوة مفيدة .

فقلت فى تسليم :

ــ هذه هى الحقيقة .

تساءلت ضاحكة :

ــ ترى أهو ذنب المشكلة أم ذنبك ؟

ــ لا أدافع عن نفسى ولكن لا يمكن أن أتهم بالإهمال :

ـــ لماذا تصر على تأجيل زواجنا حتى تحل جميع مشكلاتك ؟

ـــ هذا هو التصور الطبيعي .

ـــ ولكن الزواج يهيّئ لك نصف الأمان على الأقل فأخى من كبار رجال الشرطة !

فقلت وأنا أنظر فى عينيها بإشفاق :

ـــ خصمى شخص مجهول .

ـــ هو أيضا لم يهتد إليك بعد ، وقد يساعدك أخى على معرفته .

ـــ أتمنى أن أتزوج وأنا رائق البال .

ـــ لا عقبة فى طريقنا إلا ما ينبثق من ذاتك .

عاودتنى عواطف صافية من زمن مضى فرمقتها بحنان وحب وقلت :

ـــ فلنجلس لنحلم فى عذوبة وهدوء ، وقريباً سوف تنقشع الهموم .

وتبادلنا حبا عميقا بلا كلمة ولا حركة . وفى لحظات عابرة بدت الدنيا مراوغة وتلاشت حبيبتى من مجلسها القريب . وعادت مرة أخرى مشرقة الوجه فواصلنا الحب المتبادل الصامت . ولما تركتنى تذكرت بزهو عنادى فى مطاردتها حتى انتزعت من صميم قلبها الاعتراف بالحب، وأمدنى اللقاء بحماس جديد فقمت لأقابل البك وأسلمه الرسالة.ذهبت إلى النادى بشارع الشط الأخضر وجدته جالسا مع نخبة من الأصدقاء فى الشرفة المطلة على الحديقة الواسعة . ولما رآنى مقتربا قام مستأذنا من صحبه ، وصافحنى إكراما طبعا للهانم ، ومضى بى إلى الثوى الأخضر . أجلسنى قريبا منه ونظر إلىّ بعينيه الثقيلتين وبوجه لا يعبر عن شىء ، وسألنى :

ـــ هل من جديد ؟

فقلت بأسى :

ـــ أقابل أناسا وأتلقى وعودا .

وتناول منى الرسالة وأبقاها فى يده المنبسطة وتساءل :

ـــ ألا يقنعك هذا ؟

ـــ أريد أن يتحقق وعد .

ـــ لكلّ عمل يشغله ، هذه أيام الصرف الصحى والعدوان على تونس وخطف السفينة الإيطالية ثم خطف الطيارة المصرية ... والدولار

ـــ مشكلتى غاية فى البساطة .

ـــ أنت تتصور ذلك ، لا ، انظر إلى الموضوع بعين محايدة ..

ـــ لكن حياتى مهددة !

ـــ هل تعرف عدد الفلسطينيين الذين قتلهم الإسرائيليون ؟ ... والفلسطينيين الذين قتلهم العرب ؟ .. وضحايا العنصرية فى جنوب أفريقيا .. والطائفية فى لبنان ، وضحايا الزلازل والبراكين ، والسموم البيضاء ، والمظاهرات ؟

فقلت وأنا أنظر بين قدمى :

ـــ ما على إذن إلا أن أستسلم للموت ...

ـــ بل أعنى أن تصبر وتعتمد على النفس .

ـــ أليس من الحكمة أن أستثمر علاقاتى بالرجال الكبار ؟

ـــ لن ينقذك إلا اعتمادك على نفسك ، أفعل ما فعله رمسيس الثانى عندما حاصره الحيثيون وأوقعوه فى الشرك ..

فقلت وأنا أدارى ابتسامة :

ـــ سيدى ، أنا لست رمسيس الثانى .

ـــ لتكن رمسيس المائة أو الألف ...

وتنبه للرسالة بين يديه فقص المظروف وقرأها بعناية . ونادى النادل فطلب رسالة ومظروفا وفى تلك الأثناء هفت إلى أنفى رائحة مسك فلم أستطع أن أخفى اضطرابى ، فسألنى عما ألم بى ، فكاشفته بما تردده الشائعات عن خصمى المجهول قلت :

ـــ إنه يتطيب عادة بالمسك .

فقال الرجل بضجر :

ـــ وغيره كثيرون ، لا أظنه عضوا فى نادينا ..

وغرقت فى مستنقع الهواجس على حين راح هو يكتب التوصية الجديدة ، ثم يسلمها إلىّ فى مظروف مغلق . وغادرت النادي ، ولما قرأت اسم الوسيط الجديد رأيت أن أذهب إليه ضحى الغد . وذهبت إلى مسكنى بشارع الجندى المجهول ، غيرت ملابسى وجلست أمام التليفزيون أشاهد فيلماً بطله سيارة تندفع ذاتيا وتقتل من يصادفها من البشر . شقتي صغيرة بالية ولكن الزمن رفعها ألف درجة وجعل منها درة لا يفوز بها إلاّ ذو حظ سعيد . وقد أقمت بها مع قريب على عهد التلمذة ثم استقللت بها بعد انتهاء دراستى الجامعية وتعيينى فى الوزارة . ورن جرس الشقة فعاودنى الشك الذى اجتاحنى حين شممت رائحة المسك . ومضيت إلى العين السحرية فطالعنى وجه جارتى المقيمة فى الشقة المواجهة لشقتى . ماذا جاء بها دون طلب أو اتفاق ؟ دخلت ملتفة فى

روب وردى مشرقة الوجه بالزواق ، ولما رأت فتور وجهى قالت :

ـ لا تحب أن ترانى إلاَّ وقت الحاجة .

وجلست على مقعد قريب من مقعدى وهى تقول :

ـ لا يوجد زبائن فقلت أسلى وحدتى بجلسة بريئة !

ثم بعد صمت :

ـ ماذا جرى للزبائن ؟

فقلت دون أدنى اكتراث :

ـ لعلها الحالة الاقتصادية .

ـ أنا لا أتعامل بالدولار .

وتفحصتنى قليلا ثم قالت :

ـ مازلت غارقا فى همومك ؟

ـ طبعا .

ـ يوجد فى قريتى من يصمم على قتلى لو عثر علىّ ولكننى لا أفكر فى الغد .

فقلت بحياد :

ـ كل شيخ وله طريقة .

ـ لكل أجله وهو يعمل مستقلا عن الأسباب .

فقلت وأنا أدارى غيظى :

ـ فلسفة عظيمة ، أنت امرأة سعيدة ..

ـ لا .. وزنى ثقيل ، وهو آخذ فى الازدياد ، وتسبب فى حرمانى من تعلم الرقص ..

ـ ولكن الشهرة ليست فى صالحك وقد تدل عليك من يريد قتلك .

وانقطع حبل الحديث . ولم تجد من ناحيتى أى رغبة فى وصله ، فسلمت بفشل مهمتها ، وانصرفت وهى تلوح لى مودعة . وأنا أهم بالنوم عاودنى الإحساس بأن الدنيا تراوغنى ، فخيل إلىّ أن جارتى لم تأت لزيارتى . وخيل إلىّ حينا آخر أنها ترقد إلى جانبى ، وفى الصباح ذهبت إلى الوزارة . هى المكان الوحيد الذى ألقى فيه الاحترام وأسمع الثناء تلو الثناء . ولى زميل غاية فى الدماثة والمودة . وهو يحثنى دائما على أن أعيش حياتى ، وأن أستهين بالظنون والأقاويل التى لا يقوم عليها دليل مادى ... يقول لى :

ـ من منا لا يتربص به الموت ؟

ودعانى ذلك الصباح إلى الاشتراك فى رحلة إلى جنوب سيناء فوعدته بالتفكير فى الأمر . وعند الساعة العاشرة استأذنت فى الانصراف لعذر هام ، وغادرت المؤسسة إلى شارع الوادى الجديد حيث توجد عيادة الوسيط الجديد الذى أحمل إليه الرسالة . ورجوت التمورجى أن يوصل الرسالة إلى الطبيب فذهب بها ثم عاد بعد دقائق ليأذن فى الدخول فورا . وجدت الطبيب جالسا وراء مكتبه يطالعنى بشخصية قوية وعينين نافذتين ، غير أنه توكد لدى ما يحظى به صاحب الرسالة من منزلة فريدة عنده . قلت :

ـ أعتقد أنى قادم إلى سعادتك بصفتك الشخصية لا المهنية .

فسألنى بجدية :

ـ ما الذى حملك على هذا الاعتقاد ؟

ــ مشكلتى ، بل كل مشاكلى ، لا علاقة لها بالطب .

ــ لكن الطب له علاقة بكل مشكلة ، على أى حال ظنك فى محله ، وما نريد إلاَّ أن تمكث فى مصحة لى بحلوان فترة من الزمن حيث يتهيأ الأمان والأمن .

ــ ولكنى بعد خروجى سأرجع إلى ما كنت فيه .

ــ أو يكون الوسطاء قد تمكنوا من تصفية مشكلاتك فى أثناء ذلك .

ــ ولكن المصحة ستسىء إلى سمعتى !

ــ مصحتنا تعيش فى سرية كاملة .

وترددت متفكرا فتساءل :

ــ ألا يوجد فى حياتك ما تخجل منه أو تندم عليه ؟

ــ هذه مسألة أخرى .

ــ بل لعل كثيراً من المشاكل يرجع إليها .

فقلت بيأس !

ــ إذن فأنا ذاهب للعلاج .

ــ لن أفرض عليك شيئا لا تريده .

وقلت بمرارة وكأنما أخاطب نفسى :

ــ كيف أعيش بين مجانين !

فتساءل متهكما :

ــ وهل تعتبر نفسك عائشا بين عقلاء ؟!

وانفجر قلقى فقلت :

ــ معذرة يا سيدى ، لن أذهب إلى المصحة .

فقال بهدوء كريه :

ـــ فى هذه الحالة سأوصى إليك بأن يتركوك لشأنك دون رعاية أو عناية .

فقلبت النغمة قائلا :

ـــ أعطنى مهلة قصيرة .

فقال موافقا :

ـــ لك ذلك .

أنفقت بقية النهار متسكعا ، وتجاذبتنى طوال الوقت الحقائق والأحلام ، و لم تبق إلا خطوة يسيرة لأتساءل عمن أكون وفى أى مكان أقيم والزمان الذى أعاصره . ورجعت مساء إلى عمارتى ولكنى قصدت شقة الجارة لا شقتى . وخيل إلى أنها استقبلتنى دون مبالاة ، وربما بشىء من الجفاء ، وكأنما تعاقبنى على إعراضى عنها ليلة أمس . ولكن مسكنها يضفى على شعورا بالألفة ، ولا يخلو من فتور وضجر وإحساس شبه خفى بالخيبة . وهو بعيد كل البعد عما يجده الزائر المتسلل من التوتر والمغامرة . ولكيلا تتساءل عن سر غيابى الوشيك زعمت لها أنى راحل إلى قريتى لمهمة طارئة . وفى الصباح أعددت حقيبتى وذهبت إلى المصحة بحلوان . وهى مبنى رائع يقع فى أقصى المدينة ، ويقوم على هضبة تطل على الصحراء . واخترقت حديقة واسعة لأصل إلى البناء فى العمق ، وقادونى إلى جناح يتكون من صف طويل من الحجرات ، تفتح أبوابها على ممشى طويل يتصل بالحديقة بسلم رخامى يشغل الوسط . وتبدت حجرتى بيضاء الجدران والسقف ، بها ما يلزم من فراش وصوان وخوان

ومقعدان ، ولبثت وحيدا حتى جاءتنى ممرضة ناضجة الشخصية والأنوثة بالغداء . سألتها عن الطبيب فأجابت بأدب :

— سيجئ فى وقته !

وأعطتنى قارورة صغيرة تشف عن أقراص بيضاء خالية من أى ملصقات وقالت :

— حبة بعد كل وجبة .

فقلت محتجا :

— ولكننى لست مريضا ..

فقالت بهدوء وهى تغادرنى :

— ليست مصحتنا للمرضى ولكنها للراحة والأمان .

وأخذت أشعر بالندم على المجىء ، وأنتظر فى ملل متصاعد . وفى تمام الخامسة مساء ، انفتح الباب ودخل الطبيب . جلس على المقعد الآخر أمامى وقال :

— بداية حسنة فانعم بالأمن والأمان .

فقلت بقلق :

— ولكنى أتعاطى دواء .

— ما هو إلا مهدئ وفاتح للشهية .

— ومتى يستحسن أن أذهب ؟

— وقتما تشاء من ناحية المبدأ ، أما إذا راعينا مصلحتك فالأوفق أن تذهب بعد أن تؤدى الامتحان ..

— أى امتحان يا سيدى ؟

ـــ ما عليك إلا أن تسجل على الورق أكبر مشكلة مصرية ، وأكبر مشكلة عالمية ، ثم تفكر فى الحل المناسب لكل منهما .

فندت عنى ضحكة عالية وقلت :

ـــ لا شك أنك تمزح يا سيدى .

فقال بجدية وبرود :

ـــ ليست مصحتى مسرحا فكاهيا .

فقلت متراجعا :

ـــ معنى هذا أننى سأبقى هنا إلى الأبد .

ـــ إنها محاولة لمعرفة تصورك ليس إلا ، وعقب ذلك تذهب بسلام .

ـــ ولكن ما علاقة ذلك بمشكلتى أنا ؟

ـــ إذا استطعت أن تقدم تصورا لحل مشكلَتَىْ مصر والعالم فلا شك أنك تستطيع ذلك بالنسبة لمشكلتك الخاصة .

ـــ لكن مشكلتى من نوع خاص .

ـــ ولو ، لن تكون أعقد من مشاكل العالم .

ـــ أنت تعلم ولا شك أننى مهدد بالقتل فى أى لحظة .

ـــ كلنا مهددون بالقتل فى أى لحظة !

وسكت مغلوبا على أمرى حتى همَّ بالذهاب فسألته :

ـــ هل يشترط أن تكون الإجابة صحيحة ؟

ـــ لا أحد يزعم أنه يعرف الإجابة الصحيحة ليقيس عليها ، حسبك أن تقدم تصورا معقولا ..

وعلى أثر ذهابه جاءتنى الممرضة بورقة مسطرة وقلم رصاص

ووضعتهما على الخوان ، جذبتنى بقوة إلى أنوثتها ونضجهـا دون أن تتكلف كلمة أو حركة . وانبعثت فى آمال عجيبة ملأتنى جرأة وفى الوقت نفسه محت صورتها من قلبى العالق من خطيبتى وجارتى . قلت لها :

ــ إنى مدين لك بحسن الرعاية .

فقالت بجدية وحياء :

ــ إنى أؤدى واجبى .

ونظرت إلى خاتم الزواج فى يسراها وتساءلت :

ــ سعيدة فى زواجك ؟

فقالت بدهشة :

ــ سؤال غريب !

ــ لا مؤاخذة ولكن لى هدفا .

ــ أى هدف ؟

ــ إذا خطر لك أن تجربى حظك من جديد فإننى على أتم الاستعداد للزواج منك .

فغادرت الحجرة دون أن تنبس بكلمة . وسرت فىَّ قشعريرة إحباط وبرودة ، وضقت بالحجرة فخرجت إلى الممشى . بعض النزلاء يجلسون أمام الحجرات أو يتمشون . جارى رجل فى الأربعين ، حدجنى باهتمام فتبادلنا التحية . واقترب منى وسألنى عما جاء بى فلخصت له الموقف فى شىء من التحفظ ثم سألته بدورى عما جاء به فقال :

ــ لعلى الوحيد بينكم الذى جاء بلا مشكلة !

ــ ولكن كيف ؟

ــ أنا رجل ميسور الحال ، صاحب مـزاج ، أحب السرور والرحلات ، ولا أحمل للدنيا هما .

ــ عظيم .. عظيم ..

ــ لى صديق مشترك بينى وبين الطبيب ، هاله أن يجدنى بلا مشكلة ، وأصر على أن أعيش فى المصحة مدة ..

ــ جئت لأنك بلا مشكلة !

ــ هذا هو الواقع .

ــ وكيف قبلت ؟

ــ قلت لتكن تسلية جديدة .

ــ وهل أديت الامتحان ؟ .

ــ هذه هى مشكلتى الجديدة ، فلا علم لى عن أى مشكلة فى مصر أو العالم ، ولا أقرأ من الصحيفة إلا الإعلانات والوفيات وأين تذهب هذا المساء .

ــ ما عليك إلاَّ أن تقرأ الصحف وستمدك بمشكلات لا حصر لها .

فتساءل ضاحكا :

ــ وكيف أقدم حلولا لمشكلات لا تهمنى ألبتة ؟

والحق أنه امتص منى توترى بغرابة مشكلته ، وفتح نفسى للرجوع إلى حجرتى لأداء الامتحان المطلوب منى . وعند منتصف الليل آويت إلى فرأشى ونمت نوما عميقا . وفى الصباح الباكر جائتنى الممرضة بالإفطار . وجاءت معها برائحة ما أن شممتها حتى ارتعدت أطرافى . ولما

لا حظت تغيرى سألتنى عما ألم بى ، فقلت بقلق لم أستطع أن أداريه :

ــ هذه الرائحة !

فقالت بثقة :

ــ رائحة المسك أطيب الروائح ..

ــ من أين لك بها ؟

ــ أهدانيها أحد زوار النزلاء .

ــ هل يتردد على المصحة من زمن ؟

ــ منذ أكثر من شهر ، ألا تعجبك ؟

فقلت متحفظا :

ــ هى مرتبطة فى حياتى بذكريات غير سارة !

فقالت بمرح :

ــ فك الارتباط وتناول إفطارك .

ونضب إعجابى بالممرضة وتبخر . ولعلها شعرت بذلك على نحو ما فتساءلت بجدية :

ــ هل فرغت من تسجيل المشكلات لآخذها إلى الدكتور ؟

وفى الحال أعطيتها الورقة لأتخلص منها فى أقصر مدة . وجاءنى الطبيب قبيل الظهر . دعانى إلى الجلوس أمامه واضعا الخوان بيننا وألقى على ورقتى نظرة جديدة وقال :

ــ أنت ترى أن مشكلة مصر الأولى تتركز فى عدد السكان ؟

ــ هم أم المشاكل كلها .

ــ عظيم ، أى حل تقترح لها ؟

ـ يجب أن يهبط العدد إلى ما يتناسب مع الإمكانات المتاحة فتحل جميع المشكلات دفعة واحدة .

ـ وكيف نتخلص من الزائد ؟

ـ بالهجرة الدائمة وقتل الباقى بوسيلة رحيمة خالية من الألم !

ـ يالك من رجل رحيم !

ـ كل عاقل يجب أن يعتبرنى كذلك .

ـ ومن حسن الحظ أننى عاقل ، والآن ننتقل إلى العالم ، فأنت ترى أن الحرب النووية هى مشكلته الأولى ؟

ـ نعم ...

ـ فكيف ترى العلاج ؟

ـ أن تقوم الحرب وتقضى على العالم وتخلصه من مخاوفه .

ـ ولكن الإبادة ستلتهم المخاوف والخائفين معا .

ـ أو يبقى نفر كالذين نجوا من الطوفان ...

ـ الحق أن تفكيرك لا يخلو من رحمة وكمال دائما !

وتبادلنا نظرة طويلة ثم سألته بقلق :

ـ هل أستطيع أن أذهب الآن ؟

فقال وهو يقوم تأهبا للذهاب :

ـ بيدك وحدك أن تذهب وقتما تشاء .

وفى الحال أعددت حقيبتى وذهبت . ذهبت أسوأ مما جئت ولكن روح استهانة استحوذت على وأملت على أن أمضى فى حياتى دون اعتبار لأى شيء إلا الحياة نفسها . ونازعتنى نفسى إلى لقاء الهانم التى لولا

عطفها لهلكت من زمن بعيد . وعند العصر أقبلت عليَّ فى ثوبها متلفعة بروب خفيف بنفسجى زادها جمالا وصفاء . جلسنا حول إبريق الشاى وهى تقول :

— لم يفتنى شىء من أخبارك وإنى مسرورة بما سمعت .

فنظرت إليها بارتياب وقلت :

— تجربة المصحة تجربة غريبة ، وفى جملتها غير سارة ، وحتى هنا طاردتنى رائحة المسك ..

فابتسمت عن لآلئها وقالت :

— الطبيب مرتاح ومتفائل ويجب أن تطمئن إلى حكمه فهو ثقة علامة ..

وترددت قليلا ثم قلت :

— عَنَّ لى أن أزور قارئة الفنجان المشهورة ...

فابتسمت قائلة :

— كما تشاء ، الحقيقة اتسعت فى أيامنا هذه حتى شملت كل شىء ...

وقبلت يدها ، وغادرت مقامها إلى مصر القديمة ، إلى مسكن المرأة التى شغل ذكرها صحفنا الكبرى . وجدت حجرة الانتظار مزدحمة فطال انتظارى حتى أوشك صبرى أن ينفد . ثم جلست أمامها على مقعد صغير مريح الوسادة ، وحسوت فنجان القهوة فلم تبق إلا الرواسب . وتناولت الفنجان وراحت تتأملة بعناية ، وطال تأملها حتى قطبت كالحائرة .

ثم قالت :

— لا أدرى كيف أقرأ مستقبلك .

فتساءلت منزعجا :

ـــ أهو غامض لهذة الدرجة ؟

ـــ المسألة أن نجاتك أو هلاكك بيدك أنت .

فليس عندى ما أقوله .

ـــ لى خصم عنيد مجهول .

ـــ نعم ، أنت مجهول أمامه أيضا ، وهو يخشاك كما تخشاه ...

ـــ لم يعرفنى بعد ؟

ـــ بلى رغم أن الحياة جمعت بينكما أكثر من مرة !

ـــ جمعت بيننا ؟

ـــ هذا واضح .

ـــ أليس لديك معلومة إضافية تبل الريق ؟

قلت ما عندى والله معك .

تركتها مشتت الخاطر ينهمر فوق رأسى القلق من سماء ملبدة بالغيوم . تقول إن الحياة جمعت بيننا أكثر من مرة ! . اللعنة فهو إذن أحد سكان العمارة أو زميل فى الوزارة وربما يكون البك أو طبيب المصحة ! وذهبت إلى الزهرة لأتناول لقمة وأتمالك أنفاسى . سرح بى الخيال إلى عهد الطمأنينة والسلام قبل أن أطلب يد خطيبتى . وكيف نما إلى علمى أن نفرا من أهلها اقترحوا رفضى لهوان أصلى . ومع أن خطيبتى ذللت العقبات بقوة إرادتها إلا أن اقتراح الرفض آلمنى جدا . ودفعنى إلى النبش فى الماضى لعلى أعثر على أصل كريم غابر أخنى عليه دهر لا يرحم . وأهلتنى دراستى الجامعية للبحث فتوغلت فيه بإصرار ، ومازلت أنتقل

من جد فقير إلى آخر أجير حتى اهتديت إلى جد خطير فى عصر . كيف تدهور ذلك الجد العظيم ؟ . لقد تمرد على أبيه فحرمه من الميراث ، واستقبلت ذريته تاريخا طويلا من الفقر والذل . وعرفت من التاريخ سر النزاع القديم الذى اتخذ من الثأر المتوارث وسيلة متجددة ومقدسة فتك بها بأرواح لا تحصى من أبناء الأسرة جيلا بعد جيل ، لا يعفى منها غنى أو فقير . وقدرت بالحساب الدقيق أننى المرشح اليوم للقتل لا يؤخر الأجل عنى إلا أن الخصم لم يهتد إلى بعد . هكذا استوعبتنى مشاكل الأصل والموت فلم تبق من حيويتى إلا القليل لمشكلات الحياة اليومية الملحة . وطبيب المصحة يرى أن تصورى لحل مشاكل مصر والعالم قادر ضمنا على حل مشكلتى المؤرقة ولكن من يضمن لى الحياة حتى تحل مشاكل مصر والعالم ؟! . وتاقت نفسى للخروج من قصر التيه بأى ثمن ولأن أحيا حياتى مهما كلفنى الأمر . ودعوت خطيبتى إلى لقاء بالزهرة فى أصيل اليوم التالى . ولبت كالعادة بكل حيويتها واستجابتها العذبة وقصصت عليها حكايتى مع قارئة الفنجان منتظرا تعليقها . قالت باسمه :

— هذا يعنى أنه يحتمل أن أكون أنا خصمك المجهول !

ثم بجدية :

— احذر أن تسىء الظن بالجميع فتصبح وحيدا منبوذا .

فقلت بنبرة واضحة وقوية :

— لا أود أن أموت قبل أن أموت ..

— يسعدنى أن أسمع ذلك ..

ـــ وأود أن نتزوج فى الحال .

فوهبتنى الموافقة بنظرة عينيها ودون كلام . وإنى على أتم استعداد والحمد الله.واتفقت مع مقاول من المترددين على الوزارة لتجديد شقتى الصغيرة العتيقة ، يغير أرضيتها ويصلح النوافذ ويدهن الجدران والأسقف ، ويعيد بناء الحمام ودورة المياه والمطبخ . ولما انتهى العمل فى الشقة مضوا يفرشونها بجهاز العروس تحت إشراف خطيبتى وأمها وأخيها ضابط الشرطة . ولما كلل التعب بحسن الختام إذا بحماتى تقول بنبرة ذات مغزى :

ـــ لا بد من فرحة !

لكن مدخراتى أوشكت على النفاد ، وهمست بذلك ، فقالت الست :

ـــ لا نريد حفلا فى فندق ، حسبنا عشاء لائق فى مطعم خلوى ، وبلا رقص أو غناء !

ولبيت رغبتها على رغمى . واقتصرت الدعوة على الأهل . غير أنى دعوت الهانم فشرفتنا مع هدية سعيدة متبرعة للاجتماع بفرقة « كان كان » الموسيقية . وجلسنا متواجهين حول مائدة طويلة ، ورأيت بين المدعوين البك وطبيب المصحة دون أن أدرى كيف تم ذلك . وعاودنى إحساسى الغريب بمراوغة الذكريات الغامضة ولكن سعادتى بالعروس غلبت على كل شيء . وخطر لى فى أثناء الطعام أن خصمى المجهول موجود حتما بين المدعوين ولكننى طردت الفكرة بإصرار وواصلت الأكل والشرب . ولما فرغنا من الطعام وقف رجل كان يجلس فى الصف

الآخر إلى يسار حماتى ليلقى كلمة فيما بدا . خيل لى لأول وهلة أننى أراه لأول مرّة فى حياتى ، ثم خيل إلى مرة أخرى أننى سبق أن لمحت هذا الجبين البارز والحاجبين الغزيرين والفكين القويين ، ولكن أين أو متى ؟ . وملت نحو الهانم الجالسة إلى جانبى وسألتها عنه فقالت :

ـــ رجل طيب يقدم نفسه فى الأفراح طلبا للرزق !

وركزت عليه بصرى باهتمام لا يخلو من قلق أما هو فراح يقول بصوت جهير :

سيداتى .. آنساتى .. سادتى ..

« للفرح يوم واحد ، لا يتكرر مهما تكرر ، وهو من صنع الرحمن لا البشر ، من أجل أسمى غاية وهى عمران الوجود ، فالزواج طاعة ، والحب عبادة ، إذا حاد أحدهما عن طريقه ضل إلى الأبد ، وفى مثل هذا اليوم تسجل الحياة أحد انتصاراتها الرائعة ، فلنهنئ العروسين ، ولنحى ذكرى ربى أسرتهما النبيلة آدم وحواء ، اللذين دفعا إلى دنيانا بسبب العصيان ورفعا منها بحكم الغفران ، ولندع الله أن ينصرنا على إبليس عدو الأسرة القديم الذى لا يكف عن طلب الثأر ، والعقبى لكم فى المسرات » .

وأحنى الرجل رأسه شكرا للتصفيق الذى أعقب كلمته ثم جلس . وكاد ذكر الثأر يفسد علىّ ليلتى لولا لباقة عروستى التى جذبتنى لنجواها . وانفض الحفل الصغير على خير حال . ومضيت بعروسى إلى شقتى ، ولكن استعصى علىّ أن أدخل المفتاح فى عروة الباب . ماذا حدث ؟ وفتحت شراعة الباب عن وجه لم أتبين معالمه ، سألنى قبل أن

أفيق من ذهولى :

ـــ من أنت ؟

فصرخت فيه :

ـــ من أدخلك شقتى ؟

فصاح الرجل بغضب :

ـــ سكران ! ... مجنون ! .. اذهب قبل أن أكسر دماغك ..

ادعى كل منا أن الشقة شقته وأن الآخر معتد أو معتد ومجنون ، و لم أجد بداً من الاستغاثة بالشرطة . ولكن أين عروسى ؟ هل بادرت إلى أخيها ؟ . و لم أحب أن أضيع الوقت فى البحث عنها فذهبت إلى قسم الشرطة ، واصطحبنى ضابط إلى الشقة ، واطلع على العقد ، ثم صارحنى بأنه لا يستطيع أن يتعرض للرجل بسوء ، وأن الأمر يجب أن يعرض على النيابة . وتكشف التحقيق عن غرائب وعجائب . أثبت الرجل أن الشقة شقته بعقد قديم ، وشهد معه صاحب العمارة ، والبواب ، وكثرة من السكان . واستشهدت بعروسى وآلها الذين فرشوا الشقة بأيديهم ، وأدلوا بشهادتهم القاطعة بأنهم لا يعرفوننى وأننى لم أتزوج من ابنتهم . وماذا يقول الذين لبوا دعوة العشاء وشهدوا الزفاف ؟ ... ماذا تقول الهانم ، والطبيب ، والبك ؟ ... أجمعوا على أن أقوالى ادعاءات باطلة لا أصل لها ، وأنهم لا يعرفوننى ، ولم توجد بينهم وبينى أى صلة . ولعل الوحيد الذى لم ينكرنى ، والذى جاء دون دعوة منى ، هو صاحب الخطبة ، سمعته يقول للمحقق إنه أخى الأكبر ، ويرجو أن يذهب بى لأعالج من تلك الحالة الطارئة .. !

ودخلت فى شبه غيبوبة لا أدرى كم غشيتنى ولا متى انقشعت . ولكننى أنتبه أحيانا إلى وجود أخى إلى جانبى ، وأحيانا أخرى أعى إقامتى فى مصحة الطبيب بحلوان . وبعودتى إلى ذاتى أدركت أننى مريض وأننى أعالج ، وأن الطبيب يعالجنى بالعقاقير والكهرباء . ولما خاطبت أخى فى شئوننا الخاصة هتف الرجل بسرور :

ـــ الحمد لله ، ها أنت تعود إلى الواقع.

ولكن علاجى امتد طويلا وجالسنى الطبيب كثيرا حتى آنست إليه وأسرنى بذكائه وإنسانيته . وفى آخر مرة قال لى :

ـــ أعتقد أنك على أتم ما يكون من الشفاء الآن .

فوافقته بتسليم وصبر . فسألنى :

ـــ ما حقيقة علاقتك بأخيك الأكبر ؟

فأجبت بهدوء ويقظة ودون أى إرهاق :

ـــ إنى أقيم معه فى شقته بالعمارة ، وهو زوج وأب ، وذو ميول دينية واضحة ، ولا يكف عن حضى على الزواج رغم الظروف المعاكسة ، ولم ير بأسا من أن أتزوج من جارتنا الأرملة رغم أنها تكبرنى بأعوام ولكنها تملك الشقة وبعض المال ، ولم أذعن لمشيئته لنفور قلبى من المرأة ولا رتيابى فى استقامة سلوكها ، لا أنكر عطفه على ونصاعة خلقه ولكنه طالما وقف من سلوكى موقف الناقد طويلا بل والرافض .

ولما سألنى عن عروسى ضحكت طويلا وقلت :

ـــ كانت زميلتى فى الكلية ، أحببتها وكأنها كانت تزن مستقبلها بميزان العقل فأثبتت لى بمنطق واضح حاد أننى غير صالح للزواج ، أى غير

قادر عليه ، وفضلا عن ذلك فقد صارحتنى بأن أهلها يصرون على اختيار زوج لها من طبقتها ..

وسألنى عن الهانم فقلت :

— عرفتها من خلال عملى بوزارة الشؤون الاجتماعية كرئيسة لإحدى الجمعيات الخيرية ، بهرنى جلالها وقوة شخصيتها ورقة إنسانيتها ، وأقررت لها بأنها تملك من المزايا ما يؤهلها لحكم أمة حكما عادلا سعيدا ، ولم أجد بها من عيب إلا زواجها من « البك » الذى كان أدنى منها كثيرا فى العلم والخلق ..

وقال الطبيب :

— أما أنا فلا شك أنك عرفتنى عن طريق التليفزيون .

— بالضبط ، وأعجبت بأسلوبك فى معاملة مرضاك باعتبارهم ضيوفا .

— تبقى مسألة القتل والثأر فهل لك أعداء ؟

فقلت ضاحكا :

— بدأت المسألة بالمجاز ، يقول أخى لى فى شتى المناسبات إننى عدو نفسى وإنّه يجب أن أحذر العدو الكامن بين جوانحى ، وأقول له إنه يوجد أكثر من عدو يتربصون بنا الدوائر .. وإلا فكيف تفسر هذا الانهيار الشامل ؟!

وهز الطبيب رأسه وهو يبتسم ثم قال :

— وفى حوارنا المتصل الطويل لمست انفعالك الشديد حول قيم كثيرة كالعلم والعمل والسعادة ، أيرجع ذلك للأسباب التى ذكرتها ؟

فقلت بحدة :

ـــ ليس ذلك فحسب ، لكنى أذكر دائما دراستى الجامعية الضحلة العقيمة ، وبطالتى التى أمارسها فى الوزارة ، والسعادة التى أحلم بها دون جدوى ..

ـــ ورحت تكمل ما ينقصك بأحلام اليقظة حتى أشرفت على الضياع الذى أنقذت منه بمعجزة.

فقلت خاشعاً :

ـــ بفضلك يا سيدى .

وخرج أخى عن صمته فقال :

ـــ وبفضل الله قبل كل شىء ..

فقال الطبيب :

ـــ حدثنى الآن عن الدرس الذى أفدته من إقامتك القصيرة فى مصحتى ؟

فقلت بحماس :

ـــ إن أحلام اليقظة غير مجدية !

سرت إلى جانب أبى متعلقا بيمناه . جريت لألحق بخطاه الواسعة . ملابسى كلها جديدة ، الحذاء الأسود والمريلة الخضراء والطربوش الأحمر . غير أنى لم أسعد بالملابس الجديدة سعادة صافية ، فيومى لم يكن يوم عيد ولكنه أول يوم يلقى بى فى المدرسة . وقفت أمى وراء النافذة تراقب موكبنا الصغير فالتفت نحوها كالمستغيث بين حين وآخر . تقدمنا فى شارع بين الجناين تحف به من الجانبين حقول مترامية مزروعة بالخضر والتين الشوكى وأشجار الحناء وبعض النخلات . قلت لأبى بحرارة :

ـ لماذا المدرسة ؟.. لن أفعل ما يضايقك أبدا :

فقال ضاحكا :

ـ أنا لا أعاقبك ، المدرسة ليست عقابا ، ولكنها المصنع الذى يخلق من الأولاد رجالا نافعين ، ألا تريد أن تصير مثل أبيك وإخوتك ؟!

لم أقتنع . لم أصدق أنه يوجد خير حقا فى انتزاعى من بيتى الحميم ورميى فى هذا المبنى القائم فى نهاية الطريق مثل حصن هائل شديد الجدية والصرامة عالى الأسوار . ولما بلغنا البوابة المفتوحة تراءى لنا الفناء واسعا ومكتظا بالأولاد والبنات . وقال أبى :

ـ ادخل بنفسك وانضم إليهم ، ابسط وجهك وابتسم ، وكن مثالا طيبا..

ترددت وشددت أصابعى على راحته ولكنه دفعنى برفق وهو يقول :

ـ كن رجلا ، اليوم تبدأ الحياة حقا ، ستجدنى فى انتظارك وقت الانصراف.

مشيت خطوات ثم وقفت أنظر : أنظر ولا أرى . ثم : أنظر فتلوح لى وجوه الأولاد والبنات . لا أعرف أحدا ولا أحد يعرفنى .

شعرت بأننى غريب ضائع . ولكن ثمة نظرات اتجهت نحوى بدافع من حب الاستطلاع . واقترب منى ولد وسألنى :

— من الذى جاء بك ؟

فهمست :

— أبى .

فقال ببساطة :

— أبى ميت .

لم أدر ماذا أقول له . وأغلقت البوابة مرسلة صريرا مؤثرا . أجهش البعض بالبكاء . دق الجرس . جاءت سيدة يتبعها نفر من الرجال . أخذ الرجال يرتبوننا صفوفا . انتظمنا شكل دقيق فى فناء واسع محاط بين ثلاث جهات بأبنية مرتفعة مكونة من طوابق ، وبكل طابق شرفة طويلة مسقوفة بالخشب تطل علينا . وقالت المرأة :

— هذا بيتكم الجديد ، هنا أيضا آباء وأمهات ، هنا كل شىء يسر أو يفيد من اللعب إلى العلم إلى الدين ، جففوا الدموع واستقبلوا الحياة بالأفراح ..

استسلمنا للواقع . وسلمنا الاستسلام إلى نوع من الرضا . وانجذبت أنفس إلى أنفس . ومنذ الدقائق الأولى صادق قلبى من الأولاد من صادق ، وعشق من البنات من عشق ، حتى خيل إلىّ أن هواجسى لم تقم على أساس . لم أتصور قط أن المدرسة تموج بهذا الثراء كله . ولعبنا شتى الألعاب من أرجوحة وحصان وكرة . وفى غرفة الموسيقى ترنمنا بأولَ الأناشيد . وتم أول تعارف بيننا وبين اللغة . وشاهدنا الكرة

الأرضية وهى تدور عارضة القارات والبلدان . وطرقنا باب العلم بادئين بالأرقام . وتليت علينا قصة خالق الأكوان بدنياه وآخرته ومثال من كلامه . وتناولنا طعاما لذيذا . وغفونا قليلا . وصحونا لنواصل الصداقة والحب واللعب والتعلم . وأسفر الطريق عن وجهه كله فلم نجده صافيا كامل الصفاء والعذوبة كما توهمنا . ربما تدهمه رياح صغيرة وحوادث غير متوقعة فهو يقتضى أن نكون على تمام اليقظة والاستعداد مع التحلى بالصبر . المسألة ليست لهوا ولعبا . ثمة منافسة قد تورث ألما وكراهية أو تحدث ملاحاة وعراكا . والسيدة كما تبتسم أحيانا تقطب كثيرا وتزجر .ويعترضنا أكثر من تهديد بالأذى والتأديب . بالإضافة إلى ذلك فإن زمان التراجع قد مضى وانقضى ولا عودة إلى جنة المأوى أبدا . وليس أمامنا إلا الاجتهاد والكفاح والصبر ، وليقتنص من يقتنص ما يتاح له وسط الغموم من فرص الفوز والسرور . ودق الجرس معلنا انقضاء النهار وانتهاء العمل . وتدفقت الجموع نحو البوابة التى فتحت من جديد . ودعت الأصدقاء والأحبة وعبرت عتبة البوابة . نظرت نظرة باحثة شاملة فلم أجد أثرا لأبى كما وعد . انتحيت جانبا أنتظر . طال الانتظار بلا جدوى فقررت العودة إلى بيتى بمفردى .. وبعد خطوات مر بى كهل أدركت من أول نظرة أننى أعرفه . هو أيضا أقبل نحوى باسما فصافحنى قائلا :

— زمن طويل مضى منذ تقابلنا آخر مرة ، كيف حالك ؟

فوافقته بإحناءة من رأسى وسألته بدورى :

— وكيف حالك أنت ؟

— كما ترى ، الحال من بعضه، سبحان مالك الملك !

وصافحنى مرة أخرى وذهب . تقدمت خطوات ثم توقفت ذاهلا . رباه .. أين شارع بين الجناين ؟. أين اختفى ؟.. ماذا حصل له ؟. متى هجمت عليه جميع هذه المركبات ؟. ومتى تلاطمت فوق أديمه هذه الجموع من البشر ؟. وكيف غطت جوانبه هذه التلال من القمامة ؟. وأين الحقول على الجانبين ؟. قامت مكانها مدن من العمائر العالية ، واكتظت طرقاتها بالأطفال و الصبيان ، وارتج جوها بالأصوات المزعجة . وفى أماكن متفرقة وقف الحواة يعرضون ألعابهم ويبرزون من سلالهم الحيات والثعابين . وهذه فرقة موسيقية تمضى معلنه عن افتتاح سيرك يتقدمها المهرجون وحاملو الأثقال . وطابور من سيارات جنود الأمن المركزى يمر فى جلال وعلى مهل . وعربة مطافئ تصرخ بسرينتها لا تدرى كيف تشق طريقها لإطفاء حريق مندلع . و معركة تدور بين سائق تاكسى وزبون على حين راحت زوجة الزبون تستغيث ولا مغيث . رباه . ذهلت . دار رأسى . كدت أجن . كيف أمكن أن يحدث هذا كله فى نصف يوم ، ما بين الصباح الباكر والمغيب ؟. سأجد الجواب فى بيتى عند والدى . ولكن أين بيتى ؟ لا أرى إلا عمائر وجموعا . وحثثت خطاى حتى تقاطع شارعى بين الجناين وأبو خودة . كان على أن أعبر أبو خودة لأصل إلى موقع بيتى غير أن تيار السيارات لا يريد أن ينقطع . وظلت سارينا المطافئ تصرخ بأقصى قوتها وهى تتحرك كالسلحفاة فقلت : لتهنأ النار بما تلتهم . وتساءلت بضيق شديد متى يمكننى العبور ؟. وطال وقوفى حتى اقترب منى صبى كواء تقوم دكانه على الناصية ، فمد إلى ذراعه قائلا بشهامة :

— يا حاج .. دعنى أوصلك ..

يرغب فى النوم

غادر التاكسى عند مدخل شارع حسن عيد . الضحى ارتفع والشمس تريق أشعة حامية من سماء باهتة ، ودفقات متتابعة من الخماسين تزيد من الحرارة وتثير الغبار وتنفث الضيق والكدر . تغير كل شيء بقوة تفوق الخيال . الطريق من محطة مصر حتى هنا يكشف قاهرة أخرى . أين ذهبت القاهرة التي عاش فيها منذ نيف وخمسين عاما ؟. جنت بالزحام والسيارات والصراخ والدمامة . ليس وجهه وحده الذى عبث به الزمن . وهو متوسط القامة نحيلها ، معروق الوجه ، أصلع ، شائب العذار والشارب . مطوق العينين والفم بالغضون ، يتوكأ على عصا ، ويتمتع بنشاط يحسد عليه بالقياس إلى سنه . ها هو قد رجع بعد عمر طويل فما الأمل ؟. لم يرجعه عقل أو منطق ولكن نداء خفى ملح متعب مبدد للراحة قال له اذهب وانظر وافعل شيئا ما لعله يجعل نومك أعمق . وشارع حسن عيد يتراءى فى تكوين جديد . حتى اسمه امحى من الوجود وحل محله اسم جديد هو الشهيد مصطفى إبراهيم . وعلى الجانبين قامت العمائر العالية ، وتراصت فى أسفلها الدكاكين ، وماج الطريق بالزبائن . إنه سوق ولا أثر للبيوت القديمة والهدوء الشامل والذكريات المتلاشية كحلم . نداء عقيم ، ساقه بلا وعى . وسيتمخض عن لا شيء . واتجه نحو العمارة الأخيرة فى الجانب الأيمن . هنا قام يوما البيت القديم . كأن الشارع لم يكنس منذ جيل ، والخماسين تشتد وتحمى منذرة بالمزيد من الإرهاق . وحن إلى متجره فى الريف ، البيت

والأولاد الذى اضطر إلى الابتعاد عنه بعد إقامة نصف قرن . بواب العمارة مشغول ببيع الفاكهة فى مدخل العمارة معروضة على رف طويل تحت صناديق البريد ما بين برتقال وموز وليمون . وقعت عيناه على عينيه فانتبه الرجل متوقعا زبونا جديدا فحياه بسرعة وقال :

ـــ هل تعرف عم محمد الشماع أو أى أحد من أسرته ؟

فتر إقبال الرجل وقال :

ـــ لا أعرف أحدا بهذا الاسم .

ـــ كان يقيم فى البيت القديم الذى شيدت هذه العمارة محله ؟

ـــ هذه العمارة قائمة منذ أربعين عاما !

ـــ لعل أحدا بهذا الاسم فى عمارة أخرى ؟

ـــ لا أظن ، وعليك أن تتأكد بنفسك بسؤال البوابين .

دورة من العناء والضجر واليأس ولا أحد يعرف الشماع أو أسرته . كانوا أسرة كاملة مكونة من أب وأم وأخ وأخت . من رحل يا ترى ومن بقى ؟! ونصف قرن ـــ بل أكثر ـــ ليس بالزمن القليل ، عمر طويل دالت فيه دول وقامت دول . وهل تنسى أيام التعاسة الأولى ، أيام القحط والأزمة ؟. وإن يكن جيل مضى ألم يخلف جيلا جديدا ؟، ألا توجد همزة وصل تصل ما بينه وبين ذلك الزمن الغابر ؟. هل يرجع كما جاء ليجد الذكريات فوق فراشه ترصده بنظراتها الباردة القاسية ؟. ورجع إلى الشارع العمومى فشعر بالعرق ينساب على جسده خطوطا لاذعة تحت جلبابه المخطط ، واشتدت الخماسين واكفهرت وأثارت مزيدا من التراب فحجب الأفق عن الرؤية . لا مفر من الانتظار حتى

المساء ليعود مع قطار الصعيد . وقت طويل والتسكع لا يحلو فى مثل هذا اليوم . ترى أين أصحاب الشباب ومن بقى منهم على قيد الحياة ؟. لعل عند أحدهم نبأ عما يبحث عنه ولكن أين هم وهل ما زالوا يتذكرونه ؟. لا . لا .. بحث عقيم عن أناس اقتلعوا تماما من وجدانه وكأنهم ماتوا وشبعوا موتا . حتى أغانى ذلك الزمان لم تعد تطرب أحدا وتثير السخرية . وخطر له خاطر لا يدرى من أين جاء . أن يزور المدفن القديم . ومن توه مضى إلى باب النصر . وجد القرافة عامرة بالسكان كما قرأ فى الصحف . أصبحت فى موسم دائم . ولكن حوشهم نجا لصغره إذ كان يحوى قبرا واحدا ، وخاليا من المرافق والمياه ولا يكاد يتسع لواقفين أو ثلاثة . وسأل عن التربى الذى نسى اسمه تماما فجاء عجوز يسعى ، فى سن أبيه لو كان على قيد الحياة ، ولعله ظن أنه استدعى لرزق جديد . اطمأن إلى شيخوخة الرجل وحدس أن يعرف من خلالها أشياء . وبعد تحيته سأله:

— حوش الشماع ؟

— نعم .

— إنى أسأل عنه أو عن أى فرد من أسرته .

انطفأ وميض الأمل فى عينى الرجل وسأله :

— من حضرتك ؟

— صديق قديم ويهمنى جدا أن أهتدى إلى أى فرد من الأسرة .

— كنت على معرفة وطيدة بعم محمد الشماع الله يرحمه .

— مات !

ــ ورقد فى هذا القبر منذ أكثر من خمسين عاما !

ــ والست الكبيرة ؟

ــ لحقت به بعد عام أو عامين .

ــ وماذا عن الآخرين ؟

ــ لم يفتح القبر منذ وفاة الست .. ولا علم لى عن الآخرين .

ــ كان للمرحوم ابن وبنت .

ــ كان له ابنان وبنت ..

خفق قلبه وهو يتساءل :

ــ ابنان ؟!

ــ الابن الأصغر ، ربنا يجحمه حيث يكون .

ــ لماذا ؟

ــ ولد فاسد شرير ، كان يعمل فى الدكان مع أبيه وأخيه ، وفى عز الأزمة سرق الخزانة وهرب ولم يسمع عنه خبر بعد ذلك ..

ــ أعوذ بالله ، لا شك أنه تركهم لأيام عسيرة ..

ــ محنة وفقر وتسول ، سرعان ما مات الرجل كمدا ، ولحقت به امرأته ، أنجب شيطانا ، ولا شك فى أن الله قد انتقم منه شر انتقام ..

نظر إلى القبر مليا ، ثم رفع بصره إلى السماء المغبرة ، وهمس :

ــ شكرا .

فقال الرجل :

ــ ربنا يدلك على ابن الحلال ليرشدك إلى ما تريد .

وحياه وانصرف . سار كالأعمى لا يرى ما بين يديه ..

يخطر لى أحيانا أن الراحة الحقيقية لا توجد إلا بزوالهما مِعا ، هو وهى . ولكنه مجرد خاطر يعبر القلب إذا اشتد العنت أو ادلهم الخطب . خاطر لا وزن له فى الواقع ، حلم يقظة أخرق . وهل تصبح الحياة حياة إلا من خلال التعامل معهما معا ؟ وهل يمكن تخيل الوجود بدونهما ؟ أما حيرة التردد بينهما فهى قدره الذى لا مفر منه . فى البدء تردد همسه بالمحاذير والدعوة إلى الاعتدال حيال بسماتها المغرية ، فتحدت هى محاذيره وهونت من ترشيداته . ويكفهر وجهه ويفجر إنذاراته . فتغضب هى وتغرينى بتجاهله أو تشكك فى جديته ، وأنا لا غنى لى عنها ولا قدرة لى على تجاهله. فى أيام البراءة لعبنا معا ــ أنا وهى ــ فى نور الشمس تحت السمع والبصر ، ولكن همسه يقتحمنى قائلا :

ــ حافظ على نظافة ملابسك وسلامتها .

ولكن اللعب يحب الحرية ، أليس كذلك ؟.

فيهمس :

ــ اللعب الرشيد لا يتنافر مع النظام !

وأمتعض وأتضايق . اللعب هو اللعب . لماذا يقيد لعبى بنواهيه ؟. لماذا يفسد على مذاق الأيام الحلوة ؟!. فلتتسخ الملابس فثمة من يغسلها ، ولتتمزق فالسوق مليئة بالجديد . وهو كبير ولديه ما يشغله نهاره وليله فلم يهدر وقته فى تكدير صفوى رغم حبنا المتين المتبادل ؟. وترنو هى إلى بعينيها الصافيتين وتتساءل :

ــ أرأيت تعسفه ؟

ثم تواصل بحدة :

ــ لم لا يتركنا وشأننا ؟ ولم تعمل كل هذا الحساب لكلمة تصدر عنه ؟

ولكنه قوى ، والمالك الأوحد للبيت وأدوات اللعب وكل شىء . وعلمتنى التجربة أن الاستهانة به غير محمودة العواقب . ها هو يهمس أيضا :

ــ البنت ماكرة بقدر ما هى لطيفة ، أنا أعرفها كما أعرفك ، اسمع كلامى أنا ، ولست أمانع فى لعبك معها ، العب معها ما شئت ولكن عليك بالاعتدال والنظافة ، وتذكر أنها تلعب مع آخرين أيضا فعاملها بالمثل ، ولا تجعل منها كل شىء لأنك لست لها كل شىء ، أنى أعرف أكثر منك فاسمع كلامى ..

تمنيت أن ألعب دون قيد أو شرط ولكننى تعثرت فى الخوف ولم أنس ما سمعت عن غضبه إذا غضب أو عقوبته إذا عاقب . وتضاعف عنائى عند ما حملت إلى المدرسة . والتعليم مشقة تتحدى اللهو والمرح وتلتهم الساعات بلا رحمة ، فهل قضى على أن أنفق العمر فى الصراع مع الجهل ؟ أما هى فلم تكن تكترث إلا بالساعة التى هى فيها . ترمق انشغالى بازدراء واستنكار وتقول :

ــ اختر لنفسك ما يحلو .

لو خيرت لاخترت ولكن همسه لا ينقطع عنى فما حيلتى ؟. ولأعترف بأننى كنت أنحرف عن الخط أحيانا أشرد عن الدرس لأفكر

فيها ، أو أخلو إليها فى غفلة ونأخذ فى اللعب . ويسألنى دائما عن مواظبتى فأتورط فى الكذب . ويكفهر وجهه ويكتشف كذبى . وقلت لها إنه لا تخفى عليه خافية فقالت :

ـــ أنت ضعيف فيتجلى الكذب فى عينيك !

ويقول هو لى مؤنبا :

ـــ الكذب أرذل من الجهل .

يا له من رجل . أى ضرر يصيب العالم إذا جهلت أن القاهرة هى عاصمة مصر ؟.. أو إذا لم أحفظ جدول الضرب ؟. ويقرصنى فى أذنى قائلا :

ـــ الرجل الحقيقى يجب أن يعرف السماوات والأرض ، ليست الحياة لعبا ، انظر إلى النملة ! هل يرضيك أن تكون أدنى مرتبة منها ؟!

ويغلبنى الأرتباك فأقول له معاتبا :

ـــ أنت الذى جئتنى بها لألعب معها فأبعدها عنى..

فيقول باسما :

ـــ إنك أصغر من أن تشير على بما يجب ، ولن أرتكب خطأ فى حق الجيرة والقربى ، وهى بمنزلة ابنتى ، وليس بها من بأس كزميلة لك ، فلامنع ولا إبعاد ، ولكن عليك أن تعطى الدرس ما يستحقه ولك أن تلاعبها فى أوقات الفراغ .

تلك أيام مزقها العذاب وإن بدت اليوم آية فى الجمال بسحر الزمن . وكان أن تغير صوتى فقالوا : ناهز البلوغ . وهمس فى أذنى بجزم أن الآن حرم اللعب . يا للخبر ! ما شعرت برغبة فى اللعب معها كما أشعر الآن .

وهى ترمقنى من بعيد ولكن جرأتها تلاشت . يتكلم لسانها بكلام وعيناها بكلام آخر . أقول لها خلسة :

— لا يمكن أن نهدم فى لحظة ما بنيناه فى عمر مديد .

فتقول فى دلال :

— ولكنك لم تعد تقنع بلعب زمان !

— اللعب يتغير بتغير العمر .

— وله حدود لا يتعداها ..

من ناحية أخرى راح هو يحذرنى من الأخطاء ويخاطب فى الرجل الناشئ . تمنيت ولو فراقا مؤقتا ولكنه احتقر رغبتى وقال لى :

— الحياة اقتحام وحذر ولا مجال فيها للهروب ..

الأمور تتعقد وتزداد عسرا ، بل أضحت عذابا ومحنة . ولعله لم يبد لى منفرا كما يبدو الآن . ارتفع صوته درجات . قلت ! إنه هراء فى هراء . وإنه يتدخل فيما لا يعنيه . كأنه لم يمر بالشباب يوما . وكلما ظفرت مع هى بخلوة امحّى وجوده تماما . أنا وهى كل شيء وهو لا شيء كأنه خرافة . غير أنها اعتصمت بحد لا تتعداه حتى خيل إلىّ أن همسه قد انسرب إليها . وانفجر غضبى عليه فسخرت منه فى كل مكان . واعتبرت نفسى ندا له أو أقوى . ولما تيقّنتُ من موقفى الجديد خافتنى وهربت منى . لعل ذلك بوحيه وتأثيره . وهالتنى وحدتى وتخبطت فى الفراغ . وشحنت برغبة دكناء فى الانتقام فاندفعت فى اقتراف أخطاء كثيرة بتشف واستهتار . أتحداهما معا وأعبث بذكراهما معا ولكنى لم أنج من غشاء الوحشة الذى وقعت فى شركه . وتوهمت أن الانفصال قد

فرق بينى وبينه إلى الأبد ولكن بدا أنه رغم صمته الظاهر لم يكف عن الاهتمام بأمرى . هكذا تبدل الحال فظفرت بوظيفة ، فى المجتمع وعقد قرانى بها فى ليلة بيضاء . وحق على أن أشكر فضله إلى الأبد ، وأن أقر بأنه لولا هباته العديدة وإرثه القيم ما وسعنى أن أسعد بما نلت . واستقللت بمسكن جديد ، وما رست السيادة فى مملكتى الصغيرة ، انغمست فى الحب والإنجاب والعمل . وكدت أنساه تماما لا تمردا عليه هذه المرة ولكن انشغالا بالأعباء الجديدة . وبمرور الأيام تغيرت هى أيضا ، صارت زوجة لا حبيبه ، وأما وشريكة . لا تمسك عن المحاسبة والمطالبة والشكوى . وأتساءل أين الدلال والبسمات والكلمات العذبة . وهالنى العبء المتصاعد فانزلقت قدمى من جديد فى طريق الخطأ . وربما تمادى الخطأ فساقنى إلى ما لا تحمد عقباه . وفجأة وبعد انقطاع طويل تلفن لى فى مكتبى وذكرنى بوصاياه القديمة قائلا :

— إن فوائدها لم تنعدم بعد .

يا للعجب . كدت أنسى أنه ما زال على قيد الحياة . ها هو يعيد الأسطوانة القديمة متناسيا أننى لم أعد طفلا . وأننى اليوم مثله تماما فى الحرية واتخاذ القرار . ومضيت فى سبيلى ولكن شيئا من الحذر خالط سلوكى وأهدافى . وأطرح كل ثمرات الجهد تحت أقدام الأسرة فتتلقفها دون كلمة شكر أو تقدير . وأقول لها :

— الشكر لا يهم ولكننى أرجو شيئا من الرحمة ..

فتقول :

— إنى أتعب مثلك وأكثر ولكنك أنانى ..

وتبدى لى الزواج صيغة غريبة للتوفيق بين الحب والكراهية ، بين حب الحياة وحب الموت ، بين التضحية والرغبة فى القتل . ولكن السفينة صارعت الأمواج حتى صرعتها ونجت من الغرق . ونال الآخرون استقلالهم كما نلنا يوما استقلالنا . لم يعد أحد منهم فى حاجة إلىّ . ورجعت إلى الوحدة جارة معها أثقال العمر . ولكننى لم أستسلم للأسى . وطنت نفسى على تقبل قوانين الأشياء . وناجيت فى وحدتى الرضى والسلام . ولم أقلل من قيمة المسرات الزائلة ولا من سحر التحف والأغانى ، ولا حتى من جمال الأطعمة الشعبية . وإذا بى أتذكره فجأة بعد طول نسيان . وكيف لا أتذكره ما دام على قيد الحياة . وهو من جيل معمر يغبط على طول عمره وسلامة صحته . ولو كان أصابه تلف لترامت إلينا أخباره فى حينها فلا شك أنه يمارس حياة طبيعية . وسيسعد برجوعى إليه مثل سعادتى وربما أكثر . وهيهات أن أنس نواياه الطيبة ورحمته . أما عن رأيه فى فلا أحسبه فى صالحى ولكن كان دائما أكبر من تقصيرى وأعلى . اليوم يبدو لى على حقيقته أكثر من أى عهد مضى . ثم إنه أقام فى القرية منذ عهد بعيد وشد ما تهفو نفسى إلى الخضرة والهواء النقى .إنها أثمن فى النهاية من أثاث بيتى وتحفه وما جمعت من مال وبنين . سأمضى إليه وليس فى نيتى أن أعتذر أو أن أصوغ من سحر البيان جملة واحدة . سأمثل بين يديه باسما وأقول هامسا ها أنا قد رجعت ، مدفوعا بالشوق وحده ، فاقض بما أنت قاض .

(الفجر الكاذب)

في غمضة عين

ما ظن يوما أن زوال محنته يعنى انزلاقه إلى محنة جديدة . من أجل ذلك لم يستمتع طويلا بعطر الخريف وأما راته المشربة بالبياض الناعس التى تغازله فى مجلسه بشرفة كافيتريا الجلوب . إلى جانبه وفى متناول مس منكبه جلست رافعة بروفيل وجهها الأسمر الصافى الذى تفانى فى حبه على مدى سنوات طويلة . هيأ نفسه منذ اللحظات الأولى للقاء — كالعادة — للتساكى ، ولنفث نسمات الحب فى مناخ الإحباط المحدق ، وللحومان حول هموم المسكن والخلو والجهاز والمهر ثم كيفية مواجهة تحديات المعيشة . استقلا معا قارب الحب منذ المرحلة الثانوية ، وتلاعبت به أمواج الحياة المعاندة غير المواتية ، ولكنهما ظلا مصممين على البقاء جنبا لجنب قابضين بشدة كل على مجذافه ، رافضين الانهزام أمام العقدة التى تطوقهما . هذا الصباح تطالعه عيناها بمرآة جلية الصفاء ، لا ينضح بياضهما النقى بفتور . لم يخل قط جمال نظرتها من كآبه خفية تتجلى حينا وحينا تستشف. وتاق قلبه لسماع أى خبر حسن . واحتسيا قدحى الجوافة على مهل فى صمت حتى خرقه قائلا :

— الحلم يتضخم فى رأسى وغير بعيد أن يصبح واقعا :

فقالت بثقة جديدة كل الجدة :

— غير بعيد على الإطلاق .

حقا ؟!. اقترح دات يوم أن يتزوجا بالفعل وليكن ما يكون . أجل

سيظل فى بيت والدة بالقبيسى كما ستظل فى بيت أبيها بالوايلى ، ثم يبحثان عن حل وهما حاملان معا لأمانة الزوجية . أبوه رغم كونه موظفا صغيرا ممن عجنهم الانفتاح إلا أنه لم يرتح أبدا لاختياره ابنة حلاق . لتكن جامعية وموظفة فأى قيمة لذلك اليوم ؟. ولكن الفتى نشأ رجلا لا يتحول عن المطالبة بحقوقه الكاملة .تفرس فى وجهها مأخوذا بتعليقها القوى وقال :

— ماذا وراءك ؟.. لديك شىء جديد ..

فقالت بثقة باسمة :

— أجل .

— حقا ؟

— تبخرت المشكلة ،انحلت العقدة ، هبط حل بارع من السماء !

— ماذا عندك ؟

فقالت بانفعال لم تستطع كبحه :

— اسمع ، رجل أعمال عرض على أبى التنازل له عن دكانه نظير مبلغ خمسين ألفا من الجنيهات ..

انعقد لسانه من طغيان الفرح . الخبر فى ذاته خبر من الأخبار المتداولة فى تلك الأيام ولكنه لم يتصور أن يطرق بابه كواقع حى.

— أرأيت يا عزيزى كيف تحل العقد بالسحر ؟!

— حكاية لا تصدق ..

— هى الحقيقة ، وبعض زبائن أبى قدموا له نصائح ثمينة ..

— مثال ذلك ؟

— أن يهجر حرفته ويعمل بالاستيراد ودلوه على الطريق لفتح مكتب ..

— استثمار وثراء مضاعف ..

فنقرت على ظهر يده بأظافرها الأرجوانية وقالت :

— أبى يجهل اللغات الأجنبية ، سيسافر كثيرا ، أقترح أن نستقيل من بطالتنا المقنعة وأن نعمل فى مكتبه بمرتب حسن ونسبة فى الأرباح ..

ضحك . ولبثت أساريرة ضاحكة ، ونسى هموم العمر كله ، وقال :

— دخل خيالى .

— وتلاشت المشكلات دفعة واحدة ..

ونظرت إليه باسمة وكأنما تدعوه لإعلان موافقته وشكره فقال :

— توفيق ما بعده توفيق .

وتاه فى الحلم تحت مراقبة عينيها مورد الخدين من الفرح غائصا فى لجة من الخواطر ، ومسح بيده على شعر رأسه الغزير ، وتنفس بعمق ثم قال وكأنما يحاور نفسه :

— سنصبح منهم !

من تعنى ؟

— أنت تعرفين ما أعنى تماما .

الماضى لا يمكن أن ينسى . إنه ماض حاضر . تجسد فى حوار متواصل . انهال بألسنته المحمومة على الانحرافات والطفيليين . من منطلق مثالية ناصعة بل انتماء لا يخلو من تطرف . لكنها قالت :

ــ الصفقة مشروعة ولا غبار عليها .

ــ أسلم بهذا ، ولكننا لم نعفها من نقدنا المر .

فقالت محتجة :

ــ لا بد أن نفرق بين ما هو شرعى وما هو منحرف ..

ــ معك الحق . ولكن أصحابنا سيسخرون منا ..

ــ فليسخروا ما شاءوا ، المهم أن عملنا لا غبار عليه ..

ــ العمل لا غبار عليه ..

ــ من منهم يعرض عن فرصة مماثلة إذا منحت له ؟

ــ لا أحد فيما أتصور :

ــ فلا يوجد سبب واحد يدعو للتردد .

ــ هذا حق ، المسأله ..

وتوقف متفكرا فتساءلت بحدة :

ــ المسألة ؟!

ــ ماذا أقول ؟، كنا نتكلم بين الأصحاب بحماس جاوز الحد ..

ــ حول المنحرفين ودائما المنحرفين ..

ــ ألم نعتبر بعض أنواع الاستيراد انحرافا ؟

فقالت متجهمة :

ــ سنكون موظفين لا أكثر !

ــ صاحب المكتب هو أبوك وحموى !

ــ لن يكون مهربا أو خطافا ..

ــ طبعا .. طبعا ، ولن يمنعنا العمل الجديد من المحافظة على

أفكارنا ..

ــ طبعا .. طبعا .. هل تتصور أن تضحيتنا بالفرصة هو الذى سيصلح المجتمع ؟

ــ طبعا لا .

ــ لا تبال إذن بأى قول متعسف .

ــ هذا هو الرأى الصواب ..

ــ هل أعتبر الأمر منتهيا ؟!

ــ أى نعم !

هكذا تلاشت المشاكل وابتسمت الحياة . آمن بذلك تماما ولكنه شعر فى الوقت نفسه بأن محنة جديدة تتربص به . بين الأصحاب أو فى أعماق ذاته . ومن الآن فصاعدا ستكون السعادة هى المشكلة . ستكون المشكلة هى الدفاع عنها والمحافظة عليها للنهاية إن أمكن ..

مرض السعادة

ثمة عدد خفي يتربص به ليكدر صفوه ويقوض بنيانه . زحف عليه زحف سحابة ثقيلة متدنية غامقة السمرة ، حجبت نور الشمس وأطفأت ضياء النهار وتسربت إلى أركان النفس بغشاوة من الكآبة فمزقت الخيوط التى ربطته طويلا بينابيع الحياة . وتهرب من إعلان حاله لعلها تكون عابرة ولكنها لم تتزحزح و لم تخف عن عينى شريكة حياته .

ـــ مالك ؟.. لا يمكن أن تكون الصحة فأنت طبيب !

ـــ صحة أحسد عليها ، الزملاء فحصونى فحصا شاملا وتلقيت التهانى ..

ـــ إذن طرأ طارىء ..

ـــ إنى أفتش عنه فلا أعثر له على أثر ..

ـــ لعله الفراغ بعد المعاش ؟

ـــ أين هذا الفراغ المزعوم ؟.. لدى النادى .. الصداقات .. الرياضة .. الموسيقى .. المطالعة.بالإضافة إلى أن كل شيء تمام يا فندم!

عندما يلقى نظرة على ماضيه ترتد إليه بتقرير موجز وصريح أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان . ولد فى بيت عز وجاه لأب من تجار القطن ، وكان وطنه بدأ يتعرض للعواصف والتقلبات ولكنه وجد المنجى والمعتصم فى نصيحة أبيه حين قال له « كن فى نفسك تسلم ، ولا شأن لك بالآخرين » . ولإعجابه بأبيه وحبه له أخذ بنصيحته . تطوع لأن يكون امتدادا له بمحض اختياره وحبه . ماج الوسط الطلابى بالزلازل

وهو قابع فى ركن هادئ يراقب ويبتسم . لم يهمه إطلاقا حتى أن يعرف فيم يختلفون أو لم يثورون . وقال له أبوه أيضا « الإنسان الكامل كامل دائما وأبدا ، والكمال هو الكمال سواء فى بلد مستعمر أم فى بلد مستقل».وعكف على ذاته ينميها ويصقلها بالعلم والرياضة والثقافة والفن بل كان ضاربا على البيانو بامتياز . ودرس الطب بكل جدارة ، وكان بميراثه فى غنى عن الكسب والعيادة فتخصص فى فرع نظرى وحصل فيه على الدكتوراه من إنجلترا ثم شغل وظيفة فى وزارة الصحة . كره من بادئ الأمر فكرة الاتصال بالجمهور أو العمل فى المستشفيات وتطلع إلى المراكز المرموقة . ولعل زواجه كان الإنجاز الوحيد الذى أقدم عليه بدوافع ذاتيه ولكن اختياره حظى بموافقة أبيه وبركاته وكأنما هو الذى اختاره له . تزوج من كريمة الباشا وكيل الصحة وكانت مستوفاة لشروط الجمال واللياقة والتعليم المناسب فضلا عن الأخلاق الطيبة . وواصل حياة هادئة سعيدة ما بين البيت والعمل والنادى وكأنما قد حقن بطعم واق من هيجان العصر وتقلباته وعواصفه . وأنجب ولدين ممتازين وناجحين . أجل تعذر عليه أن يصبهما فى قالبه كما فعل أبوه معه ، ولكنهما أرضياه تماما فى أحلامه الكبرى ، فتخرجا طبيبين ، وتزوجا من فتاتين لا يقلان فى المستوى والأهلية عن أمهما ، ما عدا ذلك فللزمن أيضا مقتضياته . وبلغ هو فى ترقيه وكالة الوزارة ، وقامت ثورة يولية فلم تمسه بسوء لبعده الطبيعى عن أى شبهة ، وأحيل على المعاش فى ميعاده القانونى ليستقبل حياة جديدة مليئة بالعواطف والمسرات . إنه الرجل السعيد حقا، إنه فلتة من فلتات الحظ والطبيعة. طبعا لم تخل تلك الحياة من أكدار

روتينية عابرة ، كمرض عابر ، أو سوء تفاهم زوجى ، أو تمرد بنوى ، أو منافسة فى العمل ، ولكنها تتلاشى مثل تجعدات أمواج عارضة فى محيط واسع من الاستقرار والسعادة . ماذا حدث بعد ذلك ؟. لماذا يفقد كل جميل مذاقه الحلو ؟ لماذا تتراكم أنات الشكوى ولا موضوع واحد للشكوى ؟. الأدهى من ذلك أنه مضى يرفض العمد التى قامت عليها سعادته ، النادى .. الصداقات .. الزوجة .. الطعام .. الرياضة ، وقبل أن يسلم بالهزيمة ويستسلم لليأس ذهب شبه مرغم للطبيب النفسى . كان صديقا حميما وزميلا قديما . وأدركه أول ما أدركه بالعقاقير . وأحدثت العقاقير أثرا طيبا فرجع إلى الشفاء وأفاق من إغماءته الطويلة . غير أنه لم يقنع بذلك وراح يتساءل :

— ولماذا يصيبنى الاكتئاب فى بحبوحة السعادة الشاملة ؟..

فضحك صديقه قائلا :

— ربما بسبب من السعادة نفسها !

فتبادلا نظرة كالإشارة الغنية بنفسها فقال الرجل :

— إنك تسخر من نوعية السعادة التى قسمت لى ..

فابتسم الطبيب وقال متهربا :

— ابناك مختلفان عنك فيما أرى ؟

فقال بعفوية :

— من سوء الحظ !

ولكنه استدرك ضاحكا :

— أعنى من حسن الحظ !

من تحت لفوق

أى أمل يمكن أن تجود به هذه الحياة ؟. إنها من صميم الأسرة ولكنها غريبة عنها تماما فى الوقت نفسه ، تمضى حياتها على الهامش ، على حافة الهامش ، رغم أنها المحور الذى يدور حولة كل شىء . أول من يستيقظ لتعد الإفطار ، ولتمارس بعد ذلك خدمات متصلة ، ختامها غسيل الأوانى بعد العشاء . لا تشعر بانتمائها إلى الأسرة إلا حينما تجلس إلى مائدة الطعام معهم ، أو عندما تتخذ مجلسها أمام التلفزيون بعد الفراغ من السخرة اليومية . وما أن تجاوز الساعة العاشرة حتى تقول لها تفيدة هانم ــ زوجة أبيها ــ بنبرة تجمع بين الحزم الصادق والعطف الكاذب :

ــ آن لك أن تنامى يا نعيمة لتأخذى قسطك من الراحة ..

المرأة لا تهمها راحتها فى شىء ولكنها تحرص على استيقاظها المبكر . يشهد على ذلك ما يتبادلانه من كراهية عميقة الجذور ، تتستر أحيانا بالصمت وتتعرى أحيانا بقوارص الكلم . هذه المرأة التى قضت عليها ، وسدت طريق الأمل بجدار غليظ . وحوالى السابعة يغادر أبوها بكرى أفندى مسكنه إلى عمله بالحكومة ، ويتبعه أخواتها الثلاث إلى وظائفهن التى ألحقن بها حديثا عقب إتمام دراساتهن الجامعية . وتأخذ نعيمة فى عملها اليومى تحت إشراف تفيدة هانم . لم يعد من المستطاع اكتراء خادمة فى هذا الزمن ، وها هى تسد هذا الفراغ بلا أجر ، وبلا شكر ، وكأنه واجب تؤديه نظير لقمتها وإقامتها فى البيت المفترض أنه بيت أبيها . أذ عنت لوضعها التعيس كما يذعن أبوها لمشيئة زوجته ، كلاهما يجد فى

الإذعان منجى من الكدر . ألفت الخدمة ، وكراهية تفيدة هانم ، وألفت ملابسها الخشنة الرخيصة الشعبية وخطها التافه من التعليم مذ أصرت المرأة على إبقائها فى البيت للمعاونة مضحية بمستقبلها ومستسلمة لحقدها الدائم ، و لم تلق عند أبيها الضعيف أى دفاع ، لم تجد نصيرا مذ فقدت أمها وهى بنت ثمانية أعوام . وها هى تعبر الثامنة والعشرين بلا أمل ولا يكاد أحد يكتشف جمالها وراء غشاء الإهمال والقذارة . الإهمال والقذارة والجهل والسن والفقر . المستقبل لا يتبسم ابتسامته الشاحبة إلا فى الحلم ، والحلم لا يريد أن يتحقق ، فهل تتجرع تعاستها حتى الثمالة ؟!. أبوها يهرّب إليها العطف أحيانا من زاوية عينه فى غفلة من المرأة، ثم تطحنه الحياة بأعبائها فيشغل عنها بهمومه وتقول وهى تتنهد :

ـــ نسينى كما نسى أمى من قبل ..

وكلما تحدت زوجة أبيها تحديا عابرا ينقلب الجميع عليها ، أخواتها وأبوها ، فتنحصر فى ركن وحيدة مغلوبة على أمرها . إنه بيت ظالم يستغلها بلا رحمة ، وإنها تمقته من صميم قلبها الجريح . وحلمت كثيرا فى شبابها الأول بمعجزات الحظ السعيد ، بمقدم رجل الأحلام ، الذى يضمها إلى قلبه رغم الفقر والجهل ويطير بها فى سماوات السعادة . ولكنه لم يقدم و لم ينتظر الزمن . وصادفت أعينا تتطلع بإعجاب ، وهى تنشر الغسيل فى الشرفة ، أو تتسوق فى الطريق ، محض نظرات بلا فعل ولا أمل . وتنفذ امرأة أبيها إلى أعماقها أحيانا فتخاطب بناتها على مسمع منها :

ـــ ادخرن واعتمدن على أنفسكن ، أبوكم لا يملك إمكانية تجهيز

بنت !

الماكرة تخاطبها هى . وتخاطبها أيضا وهى تقول لأبيها :

ــ الشاب اليوم فى حاجة إلى زوجة تشاركه حمل الأعباء ، والموظفة بمرتبها تماثل صاحبة الإيراد على أيامنا ..

ولم تستطع السكوت فقالت :

ــ لو لم أجبر على ترك المدرسة لكنت اليوم موظفة !

فقالت المرأة بصرامة :

ــ بل كنت ضعيفة فى دراستك فجعلت منك ست بيت ، وشىء خير من لا شىء .

فهتفت على رغمها :

ــ ربنا بينى وبينك !

فصرخت المرأة :

ــ تدعين على !؟..

وتدخل الأب والأخوات وخسرت كالعادة القضية . وما جدوى الكلام وما جدوى الخصام والشباب يتلاشى مع الأمل ؟! بل ها هى تشهد مأساة من نوع جديد . فقد تقدم شاب لطلب يد درية كبرى الأخوات وفشلت الخطوبة لعدم إمكان الحصول على شقة !. وليلتها دار نقاش طويل أسيف فى الأسرة عن تكاليف الزواج ، أدركت نعيمة بعده أن أخواتها لسن أسعد حظا منها إلا قليلا . حقا لقد تغيرت الدنيا وها هى تمارس عقوباتها على من يستحقها ومن لا يستحقها !. ورجعت ذات صباح من أيام الشتاء الأخيرة من السوق فى جلبابها الكستور متلفعة بشال

رمادى ويدها قابضة على سلة الخضار ، فوقفت كالعادة تتبادل كلمتين مع زوجة البواب . وإذا بالمرأة تقول :

ـــ عينى عليك ، خادمة بلا أجر ..

فقطبت دون ارتياح وفى شىء من الكبرياء فقالت المرأة :

ـــ أصبحت أكره أسرتك من أجل عيونك !

فتمتمت نعيمة :

ـــ ربنا موجود ..

فتساءلت المرأة بإغراء :

ـــ ألديك فكرة عن مرتب الخادمة اليوم ؟

ما زالت تعتبر نفسها ـ على الأقل أمام الآخرين ـ فتاة كريمة من أسرة !.

ـــ وهل المرتب هو كل شىء ؟

ـــ طبعا ، لا تكونى عدوة لنفسك ..

لم تنم ليلتها من الفكر . و لم يكن المرتب هو الإغراء الوحيد ولكن التحرير أيضا من سطوة تفيدة وضعف أبيها وأنانية أخواتها . و لم ينقطع الحوار بينها وبين زوجة البواب . رفضت فكرة العمل فى شقة مفروشة قائلة بإباء :

ـــ إنى بنت محترمة ..

فقالت المرأة :

ـــ وعندىَ أسر محترمة أيضا !

وغادرت نعيمة البيت فلم تعد . اشتغلت فى أسرة بمدينة المهندسين

بمائة جنيه وتحسنت أحوالها فى الملبس والصحة . وفى مجرى عـامين تزوجت من كهربائى مناسب جدا . ووجدت من نفسها رغبة فى زيارة أسرتها ، ليعلم زوجها أنها بنت ناس من ناحية ، وليعلم أهلها أى مصير حسن انتهت إليه بعد التحرر من ربقتهم .

وكان يوم من أسعد أيامها يوم رجعت إلى مسكنها القديم بوجهها الجديد وزيها الجميل بصحبة الزوج السعيد ..

يستقبل يومه بزيارة الشارع الطويل ، شارع الحرية . وهو صالح تماما لرياضته الصباحية بطواره السليم وأشجاره العتيقة الباسقة.يتمشى بقدر ما يستطيع ثم يرجع إلى شقته فيجد خادمته العجوز قد أعدت له مجلسه فى حجرة المعيشة ، ليخلو إلى الصحف والإذاعة والتأمل الطويل . وقرأ ذات يوم العمود اليومى للأستاذ م . ا . فشد انتباهه بقوة غير عادية . قرأ « لى جار من رجال الجيل الماضى المعروفين ، يمشى كل صباح رغم شيخوخته فى جولة رياضية يغبط عليها ، ولكنه يقضى شيخوخته فى وحدة مطلقة ، فقد شريكة العمر منذ أعوام ، وهاجر أبناؤه الثلاثة إلى الولايات المتحدة ، لم يجن من عمرة الطويل إلا الذكريات بعد سطوع نجمه فى الهندسة والسياسة ، ترى فيم يفكر فى وحدته ؟، وكيف يعالج كآبته ؟، كيف نصنع من طول العمر نعمة لا نقمة ؟! » وأكمل الأستاذ عموده عن العناية بالمسنين وما يعد لأمثالهم فى البلاد المتحضرة . وقال الرجل وهو يبتسم « إنه يعنينى أنا دون سواى ». فهو جاره على نحو ما ، وكثيرا ما يراه وهو راجع من جولته الصباحية . لكنه تخيل فأخطأ ، وما أكثر أوهام هؤلاء الكتاب . وعزم فى نفسه على أمر غير أنه أجل تنفيذه إلى صباح اليوم التالى . وكما قدر تماما رأى ـــ لدى عودته من جولة الصباح ـــ الأستاذ وهو يتجه نحو سيارته الصغيرة فتألقت عيناهما فى ابتسام لأول مرة .

وقال العجوز :

ـــ قرأت عمودك أمس ، إنه عنى فيما أعتقد ؟

فقال الأستاذ :

ـــ أرجو أن تكون راضيا !

ـــ شكرا ولكن ليس الواقع كما تتخيل !

ـــ حقا ؟!

ـــ شرفنى وقتما تشاء إذا كان يهمك أن تعرف الحقيقة .

فقال الأستاذ متحمسا :

ـــ أعدك بذلك .

وقد كان . وجالسه فى شرفة مغلقة بالزجاج اتقاء لجو الخريف حول مائدة شاى . عن قرب تجلت شيخوخة الرجل فى انتفاخ جفنيه وتجعدات فمه وذبول نظرته رغم صحته الجيدة ونشاطه الموفور . وراح يقول وهو يشجعه على تناول الشاى والبسكوت :

ـــ أشكر لك رقتك ، وجميل رثائك لى ، ولكننى لا أستحق الرثاء لأننى فوق الرثاء ، وصدقنى فأنا راض عن نفسى كل الرضا !

ـــ ما أجمل أن تقول ذلك ..

ـــ إنى قوى دائما ومنتصر دائما .

فرمقه الأستاذ بإعجاب ، وبنظرة تطالب بالمزيد ، ربما التماسا لليقين . فى الوقت نفسه .

شعر العجوز برغبة ملحة فى الإفصاح عن مكنون ذاته .

ـــ من أين جاءتنى القوة ؟ إنه أبى رحمه الله ، كان مربيا عظيما يعشق القوة ويجلها ، شحذنى بالرعاية والعناية والشدة الحميدة العاقلة ، علمنى

كيف أهتم باللعب كما أهتم بالعمل لأتطلع إلى الكمال فى جميع الأحوال ، ولن أحدثك عن تفوقى الدراسى ، ولكنى أحرزت فى لعبة الكرة نفس الدرجة من التفوق ، كنت قلب الهجوم بالمدرسة الخديوية ، ولعلى كنت اللاعب الوحيد الذى يحافظ على حماسه كله حتى اللحظة الأخيرة من المباراة وبصرف النظر عن النتائج ، وكان مدربنا يقول لفريقنا إن اللعب أهم من النتيجة وإن عليهم أن يحافظوا على روحهم العالية حتى الختام ، وقال محددا ليكن لكم أسوة فى زميلكم صفوت راجى .

فقال الأستاذ منشرحا :

ـــ ولكنك طويل القامة بصورة ملحوظة فهل أعتبر ذلك ميزة ؟

ـــ إنه ميزة لمن يحسن استغلاله ، وقد برعت فى اللعب حتى واتتنى الفرصة للالتحاق بأحد النوادى المعروفة ..

ـــ وهل صرت نجما شعبيا ؟

ـــ كلا ، هجم على خصم هجمة غير قانونية فأحدث بى عاهة فى مفصل ساقى اليمنى فاضطررت إلى الانقطاع عن رياضتى المحبوبه..

ـــ ياللخسارة .. وإذن لم تخل حياتك من منغصات !

ـــ الحياة لا تخلو أبدا من منغصات ، من حيث تتوقع أو لا تتوقع ، المهم كيف تواجهها،كيف تستوعبها ، كيف تطويها تحت جناحك ثم تمضى فى سبيلك ، أجل خيمت على الكآبة فترة طويلة حتى رمقنى أبى بازدراء ، وعاتبنى بدلا من أن يعزينى ، وسرعان ما كرست طاقتى كلها للدراسة حتى تخرجت فى الهندسة على رأس الناجحين ..

فقال الأستاذ بصدق :

ـــ إنك كمهندس غني عن التعريف ..

ـــ وكنت من الرعيل الأول الذى زهد فى الوظيفة الحكومية فقدمت فى امتحان عام لوظيفة خالية فى شركة الكهرباء ونجحت .. وأثبت وجودى بين الخواجات ..

ـــ برافو !

ـــ وثمة سوء حظ من نوع آخر أشد ضراوة مما أدركنى فى الكرة ، كان ميدانه القلب ، أحببت جارة لى حبا امتد من المراهقة إلى الشباب ، فى ذلك الزمان كانت وسائل الاتصال عسيرة جدا ومحدودة ، لم تزد عن تفاهم بالأعين وتبادل للابتسام ، وكان ذلك يعنى حبا متبادلا . وعرفت أن مدرستها الثانوية ستقوم برحلة إلى القناطر فسبقتها إليها ، واختلسنا لقاء سريعا عابرا بعيدا عن أعين الرقباء ، دقائق سريعة تحت خميلة ، ماذا قلت لها ؟ لعلى استعرت جملة عذبة من جمل المنفلوطى ، ولكنها خرجت محملة بالصدق ، وأفهمتها أن أبى لا يسمح بالكلام فى العواطف قبل أن أستكمل دراستى ، وسألتها أن تعتمد على شرفى ورجولتى وأننى سأتقدم لطلب يدها فى الوقت المناسب ، فوافقت بابتسامة صامتة ، وثملت بحلم السعادة فترة غير قصيرة ، وإذا بها تختفى من النافذة متجنبة مجال الرؤية فكدت أفقد صوابى . وتلقيت منها رسالة تخبرنى فيها بأن ابن عمها خطبها ، وأنها لم تستطع أن تقنع أحدا بالرفض ، وأعربت عن أسفها سائلة إياى المعذرة . هل خبرت مثل ذلك الموقف ؟.. أو بالحرى تلك المحنة ؟!، والظاهر أن الحب الحقيقى كان تجربة نادرة فى تلك الأيام ، وما كان يظن أنه الحب لم يكن إلا استعدادا عاما للزواج ، وكان سحر الزواج

أقوى من سحر الحب وبخاصة إن بشر بتوفيق وسعادة . لم أصدق أنها أحبتنى حقا كما أحببتها ولكننى كنت المرشح المفضل طالما لم يتقدم من هو أجدر بها منى .

تمتم الأستاذ :

ـــ كانت محنة كما قلت !

ـــ انغرز سن الألم المسموم فى أعماقى حتى نهايته ، وخيل إلى أنى انتهيت تماما وأن الحديقة جفت وتساقطت ورودها ، وتلاشت رغبتى فى العمل ..

ـــ ألم تقدم على أى محاولة جادة لاستردادها ؟

ـــ كلا ، تعذر علىّ ذلك ، لم أستطع رؤيتها قط ، وأقنعنى سلوكها بأنها فتحت صفحة جديدة ، لم يبق لى إلا ألم مجنون ، وأوهام غريبة بأننى فقدت المرأة الوحيدة فى دنياى ، إنه ألم جهنمى لا يبدو غير معقول إلا إذا فصل الزمان بيننا وبينه بالمدة الكافية للشفاء .

ـــ ولكنه قد يقتل قبل ذلك ..

ـــ بلاشك .

ـــ وفشلت فى الامتحان لأول مرة فى حياتك ؟

فابتسم العجوز قائلا :

ـــ كلا ، تلقيت لكمة قاضية ولكننى نهضت مترنحا قبل أن يبلغ الحكم فى عده رقم عشرة ، وبإرادة من صلب استخلصت الرغبة فى النجاح والتفوق من حومة المأساة . كان نضالا هائلا . بين الألم والعمل ، وعلى ضوئه تكشف لى جوهر عزيمتى لا يهزم ولا يستسلم ..

ــ مرة أخرى برافو !

ــ و لم أكد أستقر فى وظيفتى حتى صممت على الزواج ، مؤثرا هذه المرة السبيل التقليدى المعروف أو الذى كان معروفا على أيامنا ، وتم كل شيء بحمد الله وفضله ..

ــ ونسيت الحب وأيامه ؟!

ــ ليس تماما ، ربما بقيت منه رواسب معاندة كرائحة الوردة الذابلة، ولكننى عايشت تجربة الزواج بكل أبعادها ، وبنجـاح أيضا ، أأنت متزوج ؟، عظيم ، حقا يوجد فارق كبير فى السن ولكن الزواج هو الزواج ، بمودته ونقاره ، وأنغامه المنسجمة والنشاز ، والرضا والغضب ، والذرية ومسراتها ومتاعبها ، وعند الحساب الختامى تجد أنه لا غنى لطرف عن الآخر ، ماذا تريد أكثر من ذلك تعريفا للزواج الموفق ؟!، بل من يضمن لى أننى كنت سأوفق مع الأولى كما وفقت مع الأخرى ؟!

فضحك الأستاذ قائلا :

ــ خفيف الروح بقدر ما أنت حكيم !

وصمت العجوز قليلا ثم واصل :

ــ لعلى لم أبرأ تماما حتى اليوم من فقد ابنين ولكنى أثبت صمودى أمام الموت نفسه !، أنجبت خمسة أولاد مات منهم اثنان ، الأول فى وباء الكوليرا والثانى فى حمام السباحة . تهدم بنيان زوجتى . وحنقت على صمودى . الصابر المتصبر متهم فى هذا البلد . قيل عنى إنى غليظ القلب وأنى منهمك فى عملى للدرجة التى تنسينى ما عداه . هذا خطأ . إنى

أعرف الحزن والألم . ولكنى لا أعاند المقادر . وأرى أن أكبر عار فى هذه الدنيا هو عار الهزيمة .

ــ هذا ما نتمناه ونعجز عنه .

وتهلل وجهه الضامر دالا على أنه ما زال محبا للثناء وقال :

ــ وكما طعنت أبوتى طعن طموحى . إنى رجل مخضرم . لم أكن مهندسا ناجحا فحسب ولكننى كنت أيضا ذا انتماء سياسى معروف وآمال وطنية مترامية . وظفرت فى انتخابات ١٩٥٠ بعضوية مجلس النواب وتنبأ لى كثيرون بالوزارة . وإذا بثورة يولية تقوم على غير توقع منى ، وطويت الأرض التى كنت أقف فوقها مثل المسلة ، وقذفت بأحب الرجال إلى قلبى إلى مجاهل النسيان وأعماق السجون . أصابنى من الأذى شىء قليل ولكنى وجدت نفسى لأول مرة متهما معزولا . وقبعت فى كهف الضياع زمنا ولكنى لم أستسلم كما أنى لم أنطح الصخر . وتذكرت انتصاراتى السابقة لأستمد منها الشجاعة ، وقررت أن أكرس حياتى للعلم والعمل ففتحت مكتبى الهندسى وكان من أمرى ما تعلم مما أشرت إليه فى عمودك اليومى ..

ــ بعض رجال الثورة أنفسهم لم يكتموا إعجابهم بك ..

ــ ولم تخل حياتى الجديدة من هزائم وانتصارات كالعادة . زوجتى اضمحلت وماتت ،وعقب هزيمة ٥ يونية اجتاح الزلزال أبنائى الثلاثة ففقدوا انتماءهم وثقتهم فى كل شىء ، وهاجروا واحدا فى إثر واحد إلى الولايات المتحدة ، ووجدت نفسى غريبا كما كنت فى البداية !

ــ الهجرة تيار جامح لا ذنب عليك فيه ..

ـــ ولكن توجد حقيقة مرة لا يجوز أن نغفلها وهى أننا لم نكن على المستوى المنشود حيال الهزيمة كما كنا حيال النصر ، وحاولت أن أغريهم بالرجوع بعد أن تغير المناخ العام كثيرا ولكنهم أبوا ذلك بشدة ..

ـــ من المحزن أن أفضلنا هم من يهاجرون ...

ـــ واعتزلت العمل بحكم الشيخوخة لأعاشر وحدتى حتى النهاية ..

فقال الأستاذ باسما :

ـــ إذن فكلمتى لم تخل من حقيقة ..

فقال باسما بدوره :

ـــ ولكننى لم أستسلم للوحدة .

فرفع الأستاذ حاجبيه فوق حافتى نظارته لائذا بالصمت ، فواصل الآخر :

ـــ عقدت العزم على الانتصار حتى النهاية ، أن أنتصر على الكآبه كما انتصرت على الموت والثورة ، ما زلت قادرا على تذوق الأشياء الجميلة !

ـــ مثل ماذا ؟

ـــ المشى ، الموسيقى ، الكرواسان بالحليب ، التأمل تأهبا للمغامرة الأخيرة !

فقال الأستاذ مقهقها :

ـــ إنك صلب عنيد ..

ـــ أترانى الآن مستحقا للرثاء كما كتبت ؟!

فقال الأستاذ بهدوء :

ـــ اقرأ عمود الغد لتعرف رأيى النهائى فيك ..

خطة بعيدة المدى

بالأمس تحديات الجوع والصعلكة واليوم تحديات الثراء الفاحش . بيت عتيق بنصف مليون ، خلق عصام البقلى من جديد ، خلق من جديد وهو فى السبعين من عمره . تملّى صورته فى المرآة القديمة . صورة بالية ، تكالب عليها الزمن والجوع والحسرات . الوجه قالب من العظام البارزة والجلد المدبوغ الكريه ، جبهة ضيقة غائرة وعينان ذابلتان ورموش قليلة باقية . أسنان سود بلا ضروس ولغد من التجاعيد . ماذا يبقى من الحياة بعد السبعين ؟ . ولكن بالرغم من كل شيء فللثروة الهابطة سكرة لاتتبخر . أمور لا حصر لها يجب أن تنجز . المليونير عصام البقلى . . بعد الصعلوك المتسول عصامَ البقلى . كل من بقى على قيد الحياة من الأصدقاء القدامى هتف « أما سمعتم بما حصل للبقلى ؟ .» ، « ماذا حصل للصعلوك ؟ » ، « البيت القديم اشترته شركة من شركات الانفتاح بنصف مليون ! » ، « نصف مليون !! » « وكتاب الله » . وينتشر الذهول ما بين السكاكينى والقبيسى والعباسية كإعصار . البيت كان يمتد بفنائه الواسع بشارع فشتمر ، ورثه عن أمه ، رحلت منذ عشر سنوات بعد أن حولها العمر إلى حطام ، تعلقت بالحياة بإصرار حتى تهتكت الخيوط فهوت ، لم يحزن عليها ، عودته الحياة على ألا يحزن على شيء . لم يكن للأسرة إلا معاش أمه الصغير والمأوى ، لم يحرز أى نجاح فى المدرسة ، لم يتعلم حرفة ، لم يؤد عملا أبدا ، صعلوك ضائع ، قد يربح قروشا فى

النرد مع الغش بفضل تسامح الأصدقاء ، أصدقاء كثيرون جادت بهم المدرسة والجوار على أيام الطفولة والصبا والشباب ، فى روحه خفة كفرت عن سيئات كثيرة وغفرت أخطاء ، دائما يحظى بالعطف لشدة بؤسه وانغلاق مستقبله . الأب كان موظفا بالبريد وأمه ورثت بيت قشتمر بطابقه الواحد الصغير وفنائه الواسع المهمل ، فحق له أن يقول إنه ابن ناس طيبين ولكنه سيئ الحظ . الحقيقة إنه كان بليدا تنبلا وقليل الأدب فسرعان ما طرد من المدرسة . عاش حياته تقريبا فى مقهى إيزيس مدينا أو مسددا دينه بالغش وكرم الأصدقاء . فكر صديقه المحامى عثمان القلة أن يلحقه بمكتبه الكائن بميدان الجيش فأبى لأنه كان يكره العمل كره العمى . وفى وحدته عندما يغيب الأصدقاء فى أعمالهم يمضى وقته فى الكسل وأحلام اليقظة . يبتل ريقه بشىء من اليسر فى مواسم الانتخابات والأفراح والمآتم . عاش دهره بفضل خفة روحه وكرم أصدقاتـه ، واحترف التهريج ، يغنى ويرقص ليفوز بأكلة فول أو قطعة بسبوسة أو نفسين حشيش ، وظلت غرائزه مكبوتة جائعة مجنونة . بيت قشتمر لا يعرف من ألوان الطعام إلا الفول والطعمية والباذنجان والعدس والبصارة والنابت ، أما أحلامه فتهيم دائما فى وديان من الولائم الغامضة والجنس المكبوت . وكانت له أساطيره عن غراميات مع أرامـل ومطلقـات ومتزوجات أيضا فلم يصدقه أحد ولم يكذبه أحد . طبع بصورة المتسول منذ شبابه الأول ببدلته المشتراه من سوق الكانتو وصلعتـه المبكـرة وشحوبه الدائم . لم يصدق أساطيره أحد سوى مغامرة مع خادمه أرملة تكبره بعشر سنوات ، سرعان ما انقلبت إلى شقاق ونزاع عندما تبين له

أنها تروم الزواج منه . بل اشترطت أيضا أن يجد لنفسه عملا لأن اليد البطالة نجسة ، ووقع الانفصال من خلال معركة تبودلت فيها الضربات على الوجه والقفا . تلك كانت المغامرة الوحيدة الحقيقية والتى شهدها جاره الأستاذ عثمان القلة فحدث فى المقهى قائلا :

ـــ فاتكم مشهد ولا السيرك ، امرأة مثل زكيية الفحم ، فرشت الملاية لعزيزنا البقلى فى فناء بيته الكريم ، على مسمع ومرأى من أمه الكريمة المذهولة ، ولم تفض المعركة إلا بطلوع الروح وتدخل أولاد الحلال ، وسرعان ما نشبت معركة جديدة مع أمه ..

عدا تلك التجربة الفاشلة جحظت عيناه من طول التطلع النهم إلى السائرات فى الطريق واحترق قلبه كما احترقت معدته من الجوع . ولم يجد إلا أمه ليصب عليها جام غضبه وإحباطه رغم حبها الشديد له . حب عجوز لابنها الوحيد . وكلما حثته على العمل أو الاستقامة سألها متحديا :

ـــ متى ترحلين عن هذه الدنيا ؟

فتقول باسمة :

ـــ الله يسامحك ، وماذا تفعل إذا انقطع عنك معاشى ؟

ـــ أبيع البيت .

ـــ لن تجد من يشتريه بأكثر من خمسمائة جنيه تبددها فى شهرين ثم تحترف الشحاذة ..

لم يسمعها كلمة طيبة قط ، ونصحه أصدقاؤه بتغيير سياسته معها حتى لا يقتلها هما وكمدا ويعرض نفسه حقا للشحاذة . وذكروه بما قال

الله وما قال الرسول ولكن ضياعه اقتلع جذور الإيمان من قلبه المفعم بالجوع والحسرات . والتزم بموقفه الساخر الساخط من الأحداث التى تمر به كالمعارك الحزبية والحرب العالمية ، بل دعا على الدنيا بالمزيد من الهلاك والفناء ، وتمادى فى السخرية والاستهتار . ويئست أمه منه تماما وسلمت أمرها لله ، ويغلبها الأسى أحيانا فتسأله :

ــ لماذا تقابل حبى بالعقوق ؟

فيقول ساخرا :

ــ من أسباب النحس فى هذه الدنيا أن يمتد العمر بالبعض أكثر من الضرورى !

ومضت تكاليف الحياة فى صعود . هل ثمة مزيد من الحرمان ؟ واقترح على أمه أن يسكّن فردا أو أسرة فى حجرة نومه على أن ينام هو على الكنبة فى حجرتها . فقالت المرأة فى حيرة :

ــ نفتح بيتنا للأغراب !

فصاح بها :

ــ خير من الموت جوعا ..

وألقى نظرة على فناء البيت وتمتم :

ــ كأنه ملعب كرة ولكن لا خير فيه !

وجاءه سمسار بطالب ريفى فاستأجر حجرته بجنيه . وتندر الأصدقاء بالواقعة فقالوا إن بيت قشتمر أصبح بنسيونا . وأطلقوا على أمه « مدام البقلى » ولكن لم يكن يعتق نفسه من السخرية أمامهم ويغنى :

وأيام تيجى على ابن الأصول ينذل .

واستهان بالغارات الجوية بخلاف الكثيرين ، لم يستجب لزمـارة الإنذار أبدا ، و لم يغادر مجلسه بالمقهى ولا عرف طريق المخبأ . لا يهمه هذا ، ما يهمه أن العمر يجرى وأنه يشارف الأربعين دون أن يهنأ بلقمة لذيذة أو امرأة جميلة . حتى الثورة لم يهتز لقيامها وقال ساخراً :

ــ يبدو أن هذه الثورة ضدنا نحن أصحاب الأملاك !

وهو لم يقرأ فى حياته جريدة ويتلقى معلوماته دون اكتراث فى مجالس الأصحاب . ويتقدم به العمر حتى يتجاوز الخمسين ، وطعنت أمه فى السن ، وركبها الضعف وأخذت تفقد الاهتمام بالأشياء ، ومرت بها أزمة فتطوع صديق طبيب بفحصها ، وشخص علتها بالقلب ونصح بالراحة والدواء . كانت الراحة مستحيلة والدواء متعذرا ، ومضى يتساءل كيف يتعامل مع الحياة إذا حرم من معاشها . وراحت تقترب من الموت ساعة بعد أخرى حتى استيقظ ذات صباح فوجدها ميتة ! . نظر إليها طويلا قبل أن يغطى وجهها . خيل إليه أنه يتذكر قبسات من ماض بعيد وأنه يتوقف مرغما عن السخرية وأن تلك اللحظة من الصباح كئيبة حزينة . وقصد من توه أغنى أصدقائه السيد نوح تاجر العمارات فتكفل الرجل بتجهيز المرأة ودفنها . وحذره من بيع البيت أن يجد نفسه بعد حين مشردا فى الشارع . ترى هل يكفى الغش فى النرد وإيجار الحجرة ؟! .. أولَيس لكرم الأصدقاء حد ؟ .. وغامر بتجربة الشحاذة فى بـعض أطراف المدينة و لم تكن تجربة عقيمة . وتتابعت الأيام فمات زعيم وتولى وجاء الانفتاح وهو يستقبل عامه السبعين ، عامه السبعين من الضياع واليأس . تمادى الغلاء حقا وعربد ، وزلـزلت

الموازين . لم يعد التسول بنافع وكرم الأصدقاء انحسر وتهاوى فى بئر التلاشى ، رحل منهم نفر واأسفاه، وآوى الباقون إلى شيخوخة هادئة تقنع بالسمر . ياله من عجوز بائس يائس وتنقشع ظلمات الوجود ذات يوم عن وجه السمسار وهو يهبط بأجنحة ملائكية من كبد السماء ! . وفى حضرة صديقيه المحامى وتاجر العمارات تمت الصفقة وأودع المبلغ الخرافى فى البنك . وجلس الثلاثة فى مقهى بلدى بشارع الأزهر يتوافق تواضعه مع منظر المليونير التعيس . تنهد عصام البقلى فى ارتياح عميق يغنى عن أى كلام . إنه سعيد سعادة كاملة لأول مرة فى حياته ، ولكنه قال فى حيرة :

ـ لا تتركانى وحدى .

فقال عثمان القلة المحامى ضاحكا :

ـ لا حاجة بك لإنسان بعد اليوم .

ولكن السيد نوح قال :

ـ إنه مجنون وفى حاجة إلى مرشد فى كل خطوة .

فقال البقلى بامتنان :

ـ وأنتما خير من عرفت فى حياتى .

فقال السيد نوح :

ـ هنالك أولويات قبل الشروع فى أى عمل ، غير قابلة للتأجيل ، فى مقدمتها أن تذهب إلى الحمام الهندى لتزيل القذارة المتراكمة وتكشف عن شخصك الأصلى ..

ـ أخاف ألا يعرفونى فى البنك ...

ـــ وتحلق رأسك وذقنك ، ونشترى لك اليوم بدلة جاهزة وملابس فيمكنك الإقامة فى فندق محترم دون إثارة للريب ..

ـــ هل أقيم فى الفندق بصفة مستديمة ؟

قال المحامى :

ـــ إذا شئت ، ستجد خدمة كاملة وكل شيء ...

فقال السيد نوح :

ـــ الشقة لها مزايا أيضا ..

فهتف البقلى :

ـــ والشقة لا تكتمل إلا بعروس !

ـــ عروس ؟!

ـــ لم لا ؟ .. لست أول ولا آخر عريس فى السبعين !

ـــ إنها مشكلة !

ـــ تذكر أن العريس مليونير ...

فقال المحامى ضاحكا :

ـــ إغراء شديد ولكن لأولاد الحرام ..

فقال البقلى باستهانة :

ـــ حرام أو حلال ، كله واحد فى النهاية !

فقال نوح :

ـــ لا .. قد ترتد إلى التسول بأسرع مما تتصور ..

وقال عثمان المحامى :

ـــ فلنؤجل ذلك إلى حين .

فقال عصام البقلى :

ــ مسألة المرأة غير قابلة للتأجيل ، هى أهم من البدلة الجاهزة ..

ــ الفرص كثيرة والملاهى أكثر من الهم على القلب ..

ــ حاجتى إليكما فى هذا الطريق أشد ..

ــ ولكنا ودعنا زمن العربدة منذ أجيال ..

ــ وكيف أسير وحدى ؟

ــ من ترافقه النقود لا يعرف الوحدة ..

وقال السيد نوح :

ــ لنا جلسة أخرى فيما بعد للتفكير فى استثمار الثروة فمن الحكمة أن تنفق من الريع لا من رأس المال ..

فقال البقلى محتجا :

ــ تذكر أننى فى السبعين وبلا وريث !

ــ ولو !

فقال المحامى :

ــ المهم أن نبدأ .

وعندما اجتمعوا مساء تبدى عصام البقلى فى بشرة جديدة وبدلة جديدة . تلاشت القذارة ولكن بقيت تعاسة الكبر والبؤس القديم .

وقال المحامى ضاحكا :

ــ فالنتينو ورب الكعبة !

ولما كان الأستاذ عثمان القلة على مودة وتعامل مع مدير فندق النيل فقد استأجر له حجرة ممتازة بالفندق ، وسرعان ما دعاهما البقلى للعشاء على

مائدته . ودارت كئوس قليلة لفتح الشهية ، وجلسوا معا بعد العشاء يخططون للقاء الغد ، وأوصلهما حتى سيارة السيد نوح ولكنه لم يرجع إلى الفندق . استقل تاكسيا إلى شارع محمد على ومضى من توه إلى محل الكوارع المعروف . لم يعترف بذلك العشاء المرهف فاعتبره فاتحا للشهية ، وطلب فتة ولحمة راس وأكل حتى استوفى المزاج . وغادر المحل ليرمرم ما بين البسيمة والكنافة والبسبوسة وكأنما أصابه جنون الطعام . وعاد إلى الفندق قبيل منتصف الليل وقد سكر بالطعام حتى كاد يفقد الوعى . وأغلق حجرته وثقل غير متوقع يزحف على روحه وأعضائه . خلع الجاكتة بمنتهى العناء ثم عجز عن الإتيان بأى حركة . استلقى فوق الفراش بالبنطلون والحذاء وحتى النور لم يطفئه . ماذا يجثم فوق بطنه وصدره وقلبه وروحه ؟ . ماذا يكتم أنفاسه ؟ . من يقبض على عنقه ؟ . يفكر أن يستغيث ، أن ينادى أحدا ، أن يبحث عن موضع الجرس ، أن يستعمل التليفون ، ولكنه عاجز تماما عن أى حركة . كبلت يداه وقدماه واختفى صوته . يوجد علاج ، يوجد إسعاف ، ولكن كيف السبيل إليهما ؟ . ما هذه الحال الغريبة التى تستل من الإنسان كل إرادة وكل قدرة وتتركه عدما فى عدم ؟ . آه ، إنه الموت ، الموت يتقدم بلا مدافع ولا مقاوم . ونادى بخواطره المحمومة المدير .. نوح .. عثمان .. الثروة .. العروس .. المرأة .. الحلم .. لا شىء يريد أن يستجيب .. لم كانت المعجزة إذن ؟ .. غير معقول .. غير معقول يا رب ...

النشوة في نوفمبر

لدى خروجه من مملكة النوم الغامضة تلقى وحدته . أمس والآن وربما غداً . بللورة الوعى المتثائب . وطاف حنينه بأجواء غريبة حبيبة ، الولد فى بلجيكا والبنت فى سنغافورة ورفيقة العمر تحت الثرى . لكنه يستقبل الصباح الباكر بارتياح وبشر . نوفمبر ذو برودة حانية . يغادر الفراش ، يتناول الروب من فوق المشجب ويلتف به ، ثم يذهب إلى حجرة السفرة ليجد الشاى والجبن والشهد والتوست المحمص فى انتظاره على أحسن صورة .

عبده عجوز نشيط رغم طعونه فى السن . وهو سعيد حقا بالجبن والعسل . الجبن الدمياطى الأبيض والعسل البائح بشذا البرتقال . يحب منظر إبريق الشاى الفضى وأوعية اللبن والسكر والأطباق الصغيرة المزخرفة . ويركب طاقم أسنانه ويقبل على الإفطار بشهية . لم يعد يضيق بالوحدة كما تعود على الحياة بعد السبعين . صحة لا بأس بها ، بوسعها أن تهنأ بالهدية إذا جادت بها السماء على غير انتظار . هدية جميلة حقاً قلبت موازين الزمن . وشحنت الدقائق والساعات بالوعود المسكرة . وعندما ارتدى ملابسه بدا فى بدلته الصوفية نحيلاً طويلاً ، أبيض الرأس والشارب ، خفيف التجاعيد .. ووجد الشارع أمام العمارة مغسولاً متألقا ، ترى هل أمطرت بعذوبة فى الليل ؟ وانبسطت السماء بين هامات العمائر تسبح فيها السحب البيضاء فى زرقة عميقة صافية . انشرح صدره وتحفز للهو رغم موعد الطبيب المضروب .

وطبيبه أيضاً على المعاش ويستقبل مرضاه خلال ساعتين أو ثلاث فى نصف النهار الأول . وبسبب من بعض الأمراض المزمنة ــ القلب مثلاً ــ تنشأ صداقة بين المريض والطبيب على مدى الزمن . تصافحا ، جلس أمام مكتبه الحافل بالمراجع وقوارير العينات حتى تساءل الطبيب :

ــ خير ؟

ــ وجبت الزيارة بعد غياب أشهر ..

وخلع جاكتته ومضى إلى الفراش وراء البرافان ، ففك حزام البنطلون ، واستلقى على ظهره . وفحصه الرجل بعناية مستعيناً بأصابعه المدربة ومقياس القلب والضغط . وفى أثناء ذلك جعل يعلق على الأحداث السياسية المثيرة ، فضحك الرجل الراقد وتساءل :

ــ حتى متى يحل لأمثالنا الكلام فى السياسة ؟

فأجابه الطبيب وهو لا يكف عن الفحص :

ــ حتى تختل الذاكرة فتعفينا من قرفها ، كيف حال ذاكرتك ؟

ــ نحمده ، ولكنها فقدت مزايا لا يستهان بها .

ــ على فكرة ، الدواء الذى تواظب عليه ينفع أيضاً للذاكرة .

وارتدى ملابسه وعاد إلى مجلسه الأول أمام المكتب وأخرج من جيب الجاكتة الصغير مشطاً فسوى به شعره الأبيض الذى تشعث .

وقال الطبيب :

ــ بصفة عامة الحالة طيبة لا تغيير فى الدواء ولا إضافة ، وعليك بتجنب الانفعال ..

ــ نصيحة ثمينة ومستحيلة .

ـ لا أعنى الانفعال وحده !

ـ أفندم ؟

ابتسم الطبيب ابتسامة ذات مغزى وقال :

ـ أنت تزعم أنك ما زلت قادراً على الحب ؟

ـ ولكنى عجوز أرمل !

ـ عظيم واظب على ذلك ..

فهز رأسه موافقاً أو متظاهراً بذلك فقال الطبيب ضاحكاً :

ـ صحتك أحسن من صحتى .

غادر العيادة مطمئناً . وقال لنفسه إن نشوة رقيقة خير من حياة عامين بلا نشوة . وابتسم داخله . أحمق أم حكيم ؟. رب أحمق حكيم ورب حكيم أحمق . من يرفض هدية سقطت من السماء سهوا ؟ وحام خياله وهو فى السيارة حول التجربة الجديدة . تلك الجارة المحترمة . فى الأربعين أو جاوزتها بقليل ، غاية فى النضج والجاذبية . كيف ولماذا أثار اهتمامها ؟ لن يجد عند المنطق جواباً ولكنه اهتمام مذهل فلم يستطع أن يقاومه . يقاومه ؟ هوى من حصنه دون أدنى مقاومة.وهبته نشوة فاقت جميع انتصارات الحياة . ذاق انتصارات المناصب والثراء والزواج الأرستقراطى الموفق والبنوةالفريدة ، هذا الانتصار يفوق سابقيه جميعاً . ولعله لم يفقد حسن إدراكه فهو يشعر بأنه لا يحب . إنه لا يحب كما أحب فى الماضى البعيد . ما هو إلا تعلق بأهداب الحياة . آخر نظرة للشمس قبل الغروب . وهل نسى أنه نبذ فرصة متاحة وهو فى الخمسين رافضا أن يخون رفيقة عمره ؟ ولكن الاستهانة بالفرصة الأخيرة جنون ، جنون

لا يغتفر . وانزلق فى رعونة إلى الحلم بتبادل الإشارات خلسة ... وينتظر فى قلق .. ويسعد باللقاء .. ويتغنى بالعواطف كالأيام الخالية . بل افترض أيضاً أنها امرأة ذات خطة وغرض ، ومكر ودهاء ، فلم يثنه ذلك عن الاندفاع ، ورأى العدل كل العدل فى أن يؤدى ثمن ما ينال . غير أن الأيام تمر ولا تبدى هى إلا الود ، وتهب الحرارة والصدق ، دون أى مقابل . فليصدق إذن ، أو فليصدق وليوطن نفسه على أى نكسة . ولو أنه كاشف طبيبه نفسه بما يفعل لاقتنع ، بل ولربما حسده على جميل حظه . لذلك لم يكبح تحذير الطبيب إصراره واندفاعه . وانطلق مساء اليوم نفسه إلى عشه . ونسى فى رحابها هموم الحياة وهواجسها . وامتلأ فؤاده بالرضى والراحة والسرور . طيبة ورقيقة ومستجيبة ولله فى خلقه شئون . يقول لها :

— توجد أماكن صباحية غاية فى الأناقة والعزلة فتقول :

— الستر أوجب .

فيقول متمنياً :

— ليتنى أرجع إلى الوراء ثلاثين عاماً .

فتقول باسمة :

— ولكنى أحبك كما أنت !

أحياناً يصدق ولا يصدق أحياناً . فى فترة الجفاف تنبثق له وردة مشتعلة الأوراق . ويتوقع مفاجأة لا تريد أن تقع . ويتمادى فى لهفة وراء النشوات . حتى شعر ذات صباح أنه فى أشد الحاجة إلى لقاء طبيبه . لم يستطع أن يغادر فراشه وكان ذا خبرة سابقة . وجاء الطبيب وراح

يفحصه بعناية وهو يقول :

ــ انقطعت عنى مدة غير قصيرة .

لاذ بالصمت أو أجبر عليه . وفرغ الطبيب من فحصه فقال :

ــ أزمة بسيطة ولكن الأفضل أن تنتقل إلى المستشفى ، ما رأيك ؟

أجاب بصوت ضعيف :

ــ كما تشاء .

ــ هناك ستجد كل ما يلزم وسوف أرتب كل شيء ، وإن شاء الله تسترد صحتك فى أقرب وقت ..

ــ أشك فى هذا ...

ــ ليس الأمر بالخطورة التى تظن .

ــ بل هو خطير حقاً .

ــ سوف أذكرك .

وتردد الطبيب قليلاً ثم قال باسماً :

ــ يبدو أنك لم تعمل بنصيحتى !

فقال وهو يسدل جفنيه :

ــ ولست نادماً على ذلك .

يوم الوداع

الحياة ماضية بكل جلبتها كأن شيئا لم يكن . كل مخلوق ينطوى على سره وينفرد به . لا يمكن أن أكون الوحيد . لو تجسدت خواطر الباطن لنشرت جرائم وبطولات ، بالنسبة لى انتهت التجربة . من جراء حركة عمياء . لم تبق إلا جولة وداع . عند مفترق الطرق تحتدم العواطف وتنبعث الذكريات،ما أشد اضطرابى . تلزمنى قدرة خارقة للسيطرة على نفسى . وإلا تلاشت لحظات الوداع . انظر وتملَّ كل شىء ، وانتقل من مكان إلى مكان ، ففى كل ركن سعادة منسية يجب أن تذكر . يا لها من ضربة مفعمة بالحنق والغيظ والكراهية . اندفعت بقوة طائشة ونسيان تام للعواقب . تطايرت حياة لا بأس بها . انظر وتذكر واسعد ثم احزن . لأسباب لا وقت لإحصائها انقلب الملاك شيطانا . شد ما يلحق الفساد بكل شىء طيب . واقتلع الحب من قلبى فتحجر . لنتناس ذلك فى الوقت القصير الباقى . يا لها من ضربة قاضية . ما الأهمية ؟ . هذا شارع بورسعيد يتحرك تحت مظلة من سحب الخريف البيضاء . الأبخرة المتصاعدة من صدرى تغبش جمال الأشياء . وغمزات الحنين من الماضى البعيد تطرق أبواب قلبى ، قدماى تجرانني إلى زيارة أختى . وجهها الهادئ الشاحب يطالعنى من وراء شراعة الباب . يشيع فيه السرور وتقول :

ـــ خطوة عزيزة على غير توقع ، فى هذا الوقت الباكر..

ذهبت لتعد القهوة وجلست فى حجرة المعيشة أنتظر . نظر إلى

الوالدين والإخوة الراحلين من صورهم القائمة فوق المناضد . لم يبق لى إلا هذه الأخت الأرمل المحرومة من الذرية التى وهبت موفور حبها لى ولسميرة وجمال . هل جئت لأوصيها بابنتى وابنى ؟ . رجعت بالقهوة ومن داخل روبها الأبيض تساءلت :

— لِم لَم تذهب إلى الشركة ؟

— إجازة لوعكة .

— واضح ذلك من وجهك ، نزلة برد ؟

— نعم .

— لا تهمل نفسك .

بدأ وجهى يفضحنى . ترى ماذا يجرى فى شقتى التعيسة الآن ؟

— زارنى أمس سميرة وجمال .

— إنهما يحبانك كما تحبينهما ..

— وكيف حال سهام ؟

ياله من سؤال برىء !

— بخير ..

— ألم يتحسن الجو بينكما ؟

— لا أظن .

— دائما أنصحها وأشعر بأنها تضيق بى ..

غلبنى القهر فسكت ، فقالت :

— زماننا يحتاج للصبر والحكمة ...

أود أن أوصيها بسميرة وجمال ولكن كيف ؟ . سوف تدرك مغزى

زيارتى فيما بعد . هل تغفر سميرة وجمال لى ما فعلت ؟ ما أشد اضطرابى .

— ما رأيك فى أن أصحبك الآن إلى طبيب ؟

— لا ضرورة لذلك يا صدِّيقة ، سأذهب الآن لإنجاز بعض الأعمال .

— وكيف أطمئن عليك ؟

— سأزورك غدا !

غدا ؟! . ها هو الطريق من جديد . انظر وتمل وانتقل من مكان إلى مكان . شاطئ اسبورتنج وحيد أيضا . خال من البشر وأمواجه تصطفق منادية بلا مجيب . القلب يخفق تحت غلاف الهموم المحكم . ساعة خرجت من الماء بجسمها الرشيق مخضبة الإهاب بلعاب الشمس . تلفعت بالبرنس وهرعت إلى الكابينة لتجلس عند قدمي والديها . كنت أتمشى فى بنطلون قصير فالتقت عينانا . غمرنى ارتياح ابتهج له قلبى . ونادانى صوت فلبيت فوجدتنى فى مجلسها وكان المنادى خالها وزميلى فى الشركة . وتعارفنا وجرى حديث عابر ولكن ما كان أمتعه . لحظات من السعادة الصافية لا تشوبها شائبة . لا تتكرر ، تأبى أن تتكرر ، تطوف بقلبى الآن على هيئة حنين طائر . له وجوده الدافئ رغم تمزق الخيوط التى ربطته يوما بالواقع . وقولها ذات يوم قلبك طيب والقلب الطيب لا يقدر بثمن . حقا ؟ . من إذن القائلة لا يوجد من هو أخس أو أحقر منك . ومن القائلة ربنا خلقك لتعذيبى وتعاستى . كان على الحب أن يصمد أمام خلافات الأمزجة ولكن الخلافات قضت على الحب . كلانا عنيد شعاره

كل شيء أو لا شيء .أنت مجنونة بالمظاهر الفارغة فتصرخ فى وجهى بل أنت متخلف . سميرة وجمال يلوذان بحجرتيهما مذعورين . شد ما أسأنا إليهما . عانى الحب بيننا ساعة بعد أخرى ويوما بعد يوم حتى لفظ أنفاسه . اختنق فى لجة الجدل والخصام المستمرين . والشتائم المتبادلة . ولكن فى هذا الكازينو ، فى هذا الركن بالذات ، كاشفت خالها بإعجابى بها .

ــ إنها متعلمة ، لم تدخل الجامعة . أبوها له سياسة خاصة ، بعد التعليم الثانوى يعد الفتاة للبيت اكتفاء بدخل لا بأس به ..

قلت : هذا مناسب جداً . دعانا ــ أنا وهى ــ إلى عشاء فى سانتالوشيا . التقينا فى حديقة البجعة بعد ذلك . أيام الخطوبة والأحلام والسلوك المثالى . أسمع نغمة جميلة تهيم رغم تقصف جميع الأوتار التى عزفتها .. يا لها من ضربة قاضية . ماذا يحدث فى الشقة الآن ؟ . لم لا تكون الحياة أيام خطوبة دائمة ؟ . آه يا أقنعة الأكاذيب التى نتوارى خلفها.لا غنى عن وسيلة ناجعة لمعرفة النفس .

ــ أستاذ مصطفى إبراهيم ؟

نظرت إلى المنادى فإذا به مفتش بالشركة ماضياً ولا شك إلى عمل .

ــ أهلا عمرو بك .

ــ إجازة ؟

ــ متوعك .

ــ واضح جدا .. تحب أوصلك إلى أى مكان ؟

ــ شكرا ..

لعله أول شاهد . كلا . رآنى جارى الدكتور وأنا أغادر الشقة . هل لاحظ شيئاً غير عادى ؟ رآنى البواب أيضا . لا أهمية لذلك . لم أفكر فى الهرب قط . فى الانتظار حتى النهاية . لولا هيامى الأخير بالوداع لذهبت بنفسى . لم أسع إلى نبذ الحياة باختيارى . انتزعت من بين يدى عنوة . ما قصدت هذه النهاية أبداً . بينى وبين الخمسين خمس . ورغم المعاناة فالحياة حلوة . لم تستطع سهام أن تبغضها إلىّ. هل أزور سميرة وجمال بكلية العلوم ؟ . ذهبا دون أن أراهما و لم أكن أتوقع ما حدث . ولن أجد الشجاعة للنظر فى عينيهما . ويعز على أن أتركهما لمصيرهما . أتصورهما يطرقان الباب دون أن تهرع ماما لفتحه . سيخلف هذا اليوم أثره حتى نهاية العمر . وإذا لعنانى فلهما الحق . متى أتناسى كربتى وأخلص للوداع ؟ . انظر وتمل وانتقل من مكان إلى مكان . السوق .. يوم سرنا فى السوق لنبتاع الدبلتين . ويشعر من يمتلك العروس أنه يتحفز لامتلاك الدنيا ويشعر بأن السعادة قد تكون أى شيء إلاَّ أن تكون كالكحول . وأقول لها بوجد :

— إلى سان جيوفانى .

فتقول مشرقة :

— أتلفن لماما .

الرقة والعذوبة والملائكية فى أيامنا الأولى . متى وكيف ظهرت المرأة الجديدة ؟ . بعد الأمومة ولكن دون تحديد حاسم . كيف هيمن على شعور بخيبة الأمل ؟ . قالت لى سميرة مرة ما أشد غضبك يا بابا وما أسرعه . واعترفت لسهام مرة قائلا :

ـــ قد أنسى نفسى وقت الغضب ولكننى لا أغضب إلا لسبب !

ـــ وبلا سبب .. إنه سوء الفهم ..

ـــ تهدرين حياتنا فى السفاسف ..

ـــ السفاسف ؟ .. إنك لا تفهم الحياة .

ـــ أنت مستبدة ، لا وزن للعقل عندك ، وما فى رأسك يجب أن يتم دون اعتبار لأى شىء ..

ـــ لو احترمت آراءك لحقت علينا اللعنة ..

أنظر وتمل وانتقل من مكان إلى مكان . أبو قير مصيف الفطرة . ليكن الغداء سمكاً،املأ بطنك وحركه بشىء من النبيذ الأبيض . هذا المكان جلسنا فيه سويا ، وعلمنا فيه سميرة وجمال السباحة وهما صغيران. اهدأ يا اضطرابى فاليأس إحدى الراحتين . ألم يكن الأفضل أن أطلقها ؟

ـــ طلقنى وخلصنى ..

ـــ عز المنى لولا إشفاقى على سميرة وجمال .

ـــ بل تشفق على نفسك بعد أن وضح لك أنك شخص لا يطاق ..

الحق أنى تمنيت كثيرا موتك . بيد الأقدار لا بيدى . أى متاعب تهون إلى جانب جحيم الكراهية . نتبادل الكراهية دون خفاء . بعد تبادل أقسى الألفاظ وأفظعها . كيف تناولت طعامى بشهية ؟ حقا لليأس سعادة لا يستهان بها . وترامت من راديو أغنية أنا والعذاب وهواك فارتجف قلبى . أغنية أنا والعذاب وهواك فارتجف قلبى . أغنية أحببتها كثيرا فى ذلك الشهر المراوغ شهر العسل . كيف تتلاشى السعادة بعد أن

تكون أقوى من الوجود نفسه ؟ . تتطاير من القلوب لتعلق بأجواء الأماكن بعد اندثار مصدرها ، ثم تقع كالأطيار على الأرض الجافة فتزخرفها بوشي أجنحتها ثوانى من الزمن . أنا والعذاب وهواك وهذه الضربة القاضية . لعله اليوم الذى انقضضت فيه على سميرة بجنونك ففزعت أدفعك عنها فسقطت على رأسك . يومها اشتعلت فى عينيك نظرة غير إنسانية تمج سماً :

ــ إنى أكرهك .

ــ فى داهية .

ــ أكرهك حتى الموت .

ــ إلى الجحيم .

ــ إذا تعكر قلبى فهيهات أن يصفو .

هى الحقيقة للأسف . ياذات القلب الأسود . لم يجد اعتذار أو مجاملة أو توادد . ولم يجر بيننا حديث بعد ذلك إلا عن الواجبات والميزانية . واختلط الانتقام بتكاليف المعيشة . ونضب معين الرحمة . حامت أحلامى حول الهروب كالسجين أو الأسير . جفت رغبات قلبى وأطبقت عليه الوحشة . وراحت تتصرف تصرف المرأة الحرة فتذهب وتجىء بلا إذن أو إخطار . يلفها الصمت فلا تند عنها كلمة إلا للضرورة . وانطوت على سرها كبرياء فلم تشكنى إلا لأختى صدّيقة . ولما لم تقم بما توقعته منها وقصدت التوفيق كرهتها بدورها . وقالت إنه ليس بجنون رجل ولكنه جنون متوارث عن أسرة . وانتهزت فرصة انفرادى بسميرة وجمال سألت عن رأيهما فيما يشهدان من أحوالنا . قال

جمال :

ـــ حالكما لا يسر يا بابا ، كحال بلدنا أو أسوأ ، لذلك فإنى سأهاجر فى أول فرصة ..

أعرف الكثير عن تمرده أما سميرة فبنت عاقلة ، متدينة وعصرية فى آن ، ولكنها قالت :

ـــ معذرة يابابا لا تسامح من ناحيتك أو ناحيتها ..

ـــ كنت أدافع عنك يا سميرة .

ـــ ليتك ما فعلت ، كانت ستصالحنى بعد ساعة ، لكنك سريع الغضب يا بابا ..

ـــ لكنها غير معقولة ..

ـــ بيتنا كله غير معقول !

ـــ اخترتك قاضية .

ـــ كلا .. لا يحق لى هذا أبدا .

ـــ لم أجد عندكما أى عزاء .

فقال جمال :

ـــ لا عزاء عندنا ولا عزاء لنا .

إذا لم يحبنى هذان الاثنان كما أحبهما فأى خير أرجو فى هذا الوجود ؟! . آه . انظر وتمل وانتقل من مكان إلى مكان . بحق الحياة الضائعة . عش الساعة التى أنت فيها وانس الماضى تماما . املأ عينيك فما تغادره لن تراه مرة أخرى . كل لحظة هى اللحظة الأخيرة . من دنيا لم أشبع منها و لم أزهد فيها وانتزعت من بين يدى فى هوجة غضب . أى

شارع من هذه الشوارع لم يشهدنا معا ؟أو يشهد أسرتنا الكاملة وسميرة وجمال يتقدماننا . ألم تكن توجد وسيلة لإصلاح ذات البين ؟ . أقسى عقوبة أن تودع الإسكندرية فى مجلى خريفها الأبيض . وفى عنفوان الرجَولة والرشاد . وهذا هو البحر الصامت فى الناحية الأخرى من أبو قير . ونغنى معا يا للنعيم اللى انت فيه يا قلبى . فى حوار غنائىً بين قلبين يقظين . وسميرة وجمال مبهوران بعدّ قوارب الصيد الراسية فوق شعاع القمر .. هل يكفى يوم واحد للطواف بمعالم ربع قرن ؟ . لم لا نسجل الاعترافات العذبة فى إبانها لعلها تنفعنا وقت الجفاف ؟ . الذكريات كثيرة مثل أوراق الشجر والمدة الباقية قصيرة مثل السعادة . السعادة تغيبّ الوعى حين حضورها وتراوغنا بعد زوالها . ومن لى بمن يجمعنى بدولت ؟ . لا سبيل إلى ذلك اليوم . ولو تيسر لزادنى ارتباكا وفضح أمرى قبل الأوان . وما جدوى ادعاء حب لا وجود له ؟ اليأس وراء انزلاقى فيه . ولم تكف أبدا عن التلويح لى بالزواج دون اكتراث لمصير سميرة وجمال . ليس هو بحب ولكنه نزوة انتقام . ليتنى وقفت عنده ولم أعبره للضربة القاضية . المساء يهبط والبحث عنى يشتد ولا شك . فلأنتظر فى إستريا أحب أماكن المساء إلىّ . مجمع الأسر والعشاق والأحلام الوردية . الجعة والعشاء الخفيف والمرطبات . ربما أكون المنفرد بنفسه الوحيد . معذرة يا سميرة معذرة يا جمال ، استقبلت الصباح بنية صافية ، ولكنه الغضب يطوح بنا فوق المحاذير . ضرعت إلى الساعة أن تتأخر دقيقة واحدة . ولما تلاشت التوترات العنيفة لم يبق إلا اليأس بوجهه الثلجى الأبكم.وجلت جولة الوداع يتبعنى الموت حينا

ويتقدمنى حينا آخر . أختزل العمر فى ساعات فعرفت الحياة أكثر من أى وقت مضى . ما أسعد الناس من حولى ولو وقفوا على سرى لسعدوا أكثر ، ويسألنى النادل مجاملا :

— أين الهانم ؟

فأجيبه باكتئاب خفى :

— مسافرة .

لم يعد فى الوقت بقية . عما قريب سيقترب منى رجلان أو أكثر :

— حضرتك مصطفى إبراهيم .

— نعم يا فندم ...

— تسمح تتفضل معنا !

أقول بهدوء كامل :

— كنت فى انتظاركم ..

أحلام متضاربة

كنا زميلين فى العمل بسكرتارية وزير المعارف كما كنا زميلين من قبل بكلية الحقوق . عمل هو — محمد العبلاوى — سكرتيرا خاصا للوزير بحكم قرابته له ولمرانه على لقاء كبار الزوار اكتسابا من نشأته فى الطبقة العليا ، وعملت أنا كاتبا مختصا بشئون الصحافة . وسمعته يوما يعلن قراره عن خوض معركة الانتخابات القادمة بعد وعد من عمه — نائب الدائرة — بتنحيه عنها له وليس ذلك غالبا إلا تمهيدا لتوليه الوزارة فى أول فرصة تسنح . وكانت علاقتنا طيبة جدا كما كانت علاقته بإخوانه على أتم ما يكون من المودة والمروءة . وقلت له يوما :

— ستكون نائبا ، ثم وزيرا ، فعدنى بألا تنسانى ..

فابتسم مبتهجا بوجهه الجامع بين الجمال والوقار رغم شبابه اليافع وقال:

— لك منى وعد شرف بألا أنسى العهد أبدا ..

ولكن لم يقدر له أن يخوض المعركة الانتخابية ولا أن يتولى الوزارة فقد انسد طريقه بغتة بقيام ثورة يولية . وتبدى واجما من اليوم الأول ، وسألنى فى حيرة :

— هل سمعت شيئا ؟

فقلت ببراءة :

— إنها كما تعلم الخلافات المعروفة بين الملك والجيش وسوف تسوى لحساب الجيش ..

فقال شاردا :

— لا .. إنها أكبر مما تظن ..

واستقال صاحبى من وظيفته باختياره واختفى من مجالى تماما . وسارت الثورة فى طريقها المعروف ، وتغير النظام الطبقى فى مصر تغيرا ملموسا ، وتفتحت دنيا الآمال أمام أمثالنا . لم تقع عينى على صديقى القديم زمنا طويلا ، وكان يخطر ببالى فى مناسبات كثيرة مثل الإصلاح الزراعى ، التأميم ، الحراسة ، المصادرة . أحداث اتسمت بالحزم واستجابت لها أنفس لا حصر لها بالارتياح وأحيانا بالشماتة . ولم يكن من السهل لدى كثيرين نسيان القرون التى استعبد فيها الشعب لصالح قلة من المواطنين ، فأى ظلم فى أن يرتفع المظلومون ويهبط الطغاة ؟!. وكدت أنساه تماما حتى صادفته مقبلا نحوى فى شارع طلعت حرب فى الستينات . من أول نظرة تم التعارف والتذكر وكأنما لم نفترق إلا أمس . ولكنه شخص آخر تماما . وتساءلت ترى هل أدركنى نفس التغير وأنا لا أدرى ؟. كلا ، ليس السن وحدها. تلاشت تماما الأناقة والرونق ، وبرزت معالم شيخوخة قبل أوانها فابيض شعره كله وتجلت عظام وجنتيه ، وأفظع من ذلك كله نظرة العينين الخابية المنهزمة الضائعة ، وصوته المنخفض كأنه الخائف الأبدى أو المراقب أو المطارد .

ـــ كيف حالك ؟

ـــ الحمد لله .

ـــ أين أنت الآن ؟

فأجبت متلعثما :

ـــ مدير الإدارة القانونية .

ـــ مبارك .

ـــ وأنت ؟

ـــ كما ترى !

ثم بصراحة غريبة :

ـــ لولا حلى زوجتى لهلكنا جوعا !

فارتبكت كأننى المسئول عما حل به وقلت مجاملا :

ـــ غير معقول ..

ـــ أصادف أحيانا وزراء سابقين فى سوق بيع الحلى .

ـــ يؤسفنى أن أسمع هذا يا عزيزى ..

وهم بالانطلاق فى الحديث ولكنه عدل فجأة وتحول به عن مجراه فسألنى :

ـــ هل أستطيع أن أعتمد على معاونتك فى نشر بعض القطع المترجمة بأى ثمن ؟.. لا شك أنك تعرف صديقا هنا أو هناك يمكن أن تقبل شفاعته فى ذلك ..

فقلت بصدق :

ـــ أعدك ببذل أقصى ما لدى من جهد ..

وتصافحنا ومضى . ولم أقصر فطرحت الموضوع على صحافى صديق ، رحب من ناحية المبدأ ، ولكنه عندما سمع اسم المترجم « العبلاوى » هتف :

ـــ يا خبر أسود ، أسعى فى الخير اليوم لأجد نفسى غدا فى المعتقل !

ولكنه لم يتصل بى مرة أخرى . وغاص من جديد فى ظلمات الاختفاء فأعفانى من الحرج .

وتتابعت الأيام بأحداثها . رحل زعيم وتولى زعيم . وجاء عصر الانفتاح ساحبا وراءه التضخم . ورجعنا نحن — الموظفين — إلى المعاناة والضيق والخوف من المستقبل ، بل تهددنا الجوع نحن وأبناءنا . وذهلت يوما وأنا أقرأ اسم صديقى القديم فى مجلة ضمن أصحاب الملايين الجدد . وقرأت له فى صحيفتى اليومية سلسلة من المقالات يهاجم فيها الزعيم الراحل وعصره ويشيد بالزعيم الحالى ومآثره . وألتقي بصديق من كبار العهد الناصرى فيجول معى فى أبعاد المواقع ثم يقول بحنق :

— أردناها ثورة بيضاء وها نحن ندفع الثمن !

غير أن انشغالى بلقمة العيش لم تترك لى فراغا للكلام فى السياسة . وفى حيرتى وعذابى تذكرت عهد الشرف الذى أعطانيه العبلاوى قبل الثورة إذا ولى الوزارة . أجل إنه لم يل الوزارة ولكنه على وجه اليقين أغنى من الوزراء مجتمعين . ولن يعجزه أن يجد لى عملا فى محيط نشاطه الحافل بالأعمال . وتحريت عن مكتبه حتى عرفت موقعه . ومضيت إليه كآمل أخير فى حياتى العسيرة . والحق أنه استقبلنى بحرارة نفت عنى ارتباكى وحيرتى . وكان على أن أستغل الوقت أحسن استغلال بين رنين التليفونات والداخل والخارج . قلت :

— هل تذكر وعدك القديم ؟

فضحك عاليا و لم يتكلم فقلت بإيجاز :

— لعلك تسمع عن معاناة ذوى المرتبات الثابتة ..

فقال ساخرا :

— كما سمعت أنت عن ضحايا عبد الناصر ..

فقلت بسرعة :

ـــ لم أقصر فى حقك ولكنك اختفيت عنى تماما ..

فقال باسما :

ـــ أدركت أننى أورطك فيما لا قبل لك به ..

ثم بلهجة جادة :

ـــ أتريد عملا فى المكتب بعد الاستقالة من الحكومة ؟

ـــ كلا .. المعاش مهم أيضا .. أريد عملا إضافيا ..

ـــ لا مجال عندى لبطالة مقنعة كما تعلم .. ولكن توجد وظيفة إضافية لسواق سيارة !

لطمة هوت على كرامتى فلم أدر ماذا أقول .

ـــ لن يقل المرتب عن مائة جنيه !

تذكرت القبيلة الصغيرة التى تعانى فى البيت فقلت بتسليم :

ـــ طبعا فى غير أوقات العمل الرسمية ؟!

فقال بهدوء وربما بشىء من البرود :

ـــ مفهوم !

تحت الشجرة

كأنما غادرها أمس . بمدخلها الضيق المتوج باسمها الرنان « فينكس ، كافيتريا ، بار » ، وحجرتها المربعة المرصعة بموائدها الرخامية وكراسيها الخرزانية ومقصفها المتصدر . وكالعادة مصابيحها مضاءة منذ الصباح لانزوائها فى عمق بعيدا عن نور الشمس . وجوه غريبة لزبائن جدد فيهم نفر من الأجانب . اختار كرسيا وجلس . بجسمه الطويل النحيــل المتهافت ، وبنطلونه الرمادى وقميصه الأبيض نصف كم ، ورأسه الكبير الموخوط بالشيب ، ووجهه الغامق الموسوم بالعناء . نظر فيما حوله ، وقلقت فى عينيه الواسعتين نظرة حائرة . أقبل النادل ، ولما رآه من قريب اتسعت عيناه دهشة وسرورا ، وهتف :

ــ مبارك يا أستاذ .. حمدا لله على سلامتك .

وتصافحا . وطلب فنجان قهوة زيادة ولكن الرجل سأله قبل أن يذهب :

ــ كيف الصحة ؟

ــ كما ترى .

ــ ستعود كما كنت وأحسن.

حقا !، سبع سنوات عجاف ، ولكنه قال :

ــ ربنا يسمع منك .

وذهب الرجل ورجع بالقهوة ثم صبها فى الفنجان قائلا :

ــ هذا الفنجان على حسابى !

ـــ تشكر .

ـــ أسفنا جدا ، ما باليد حيلة ، على أى حال فأنت بطل !

رشف رشفة وسأله :

ـــ لماذا ؟

ـــ السجن فى سبيل المبدأ .

ـــ عظيم ، هل أنت مستعد لذلك ؟

فضحك النادل الكهل قائلا :

ـــ لست بطلا مثلك .

وذهب يلبى طلبا . أتى على الشراب فلم يبق إلا الرواسب فى القعر والتصاوير فى الجدران . وتذكر قول قارئة الفنجان فى الزمان الأول ، قدامك سكة سفر وسعادة . يستوى قول الأول والآخر فى الكذب . خمس سنوات ضاعت . وأبوه قال له « حذار من الجنون يا مجنون ، البلد مختنقة مهزولة ، ولا هم للفقير إلا اللقمة ولا للقوى إلا الثروة » الواضح أن الإيقاع يتضاعف والجنون يتفشى . وتفرس فى الوجوه من حوله بدهشة وإنكار . ولما رجع النادل الكهل إليه قال له :

ـــ لا أرى أحدا من زبائن زمان !

ـــ لعلهم فى البيوت ، هؤلاء سماسرة ورجال أعمال وسيــاح ، الانفتاح يا أستاذ ..

ـــ والأصدقاء ألا يجيئون كالعادة ؟

ـــ أبدا .. منذ سنوات طويلة .

فعبس متسائلا :

— كلهم ؟

— ولا واحد يوحد الله .

— عندك فكرة عنهم ؟

— طبعا ، القاسم والأرملاوى ورضوان مدرسون فى السعودية .

— السعودية مرة واحدة ؟

— خير وبركة .

— والقائمة السوداء ؟

— لا سوداء ولا بيضاء . وأدوا فريضة الحج أيضا !

ضحك على رغمه فقال النادل :

— سيملكون الشقق والسيارات ، لم لا ؟

— والسيوفى ؟

— السيوفى وبدران ورزق الله فى فرنسا ، صحافة عربية ، ثراء أيضا ، وقيل إن رزق الله اعتنق الإسلام !

ضحك مرة ثانية وتساءل :

— وأكرم ؟

— تاب ، ويعمل فى الصحافة القومية .

— وجلال ؟

— يعمل فى الأهالى .

فضحك للمرة الثالثة وقال :

— لعله جن !

— كلا ، الذى جن هو الأستاذ البرديسى !

ـــ تعنى أنه فى المستشفى ؟

ـــ كلا ، يرى أحيانا فى الشوارع يحاور الهواء ..

ـــ أفادك الله .

ـــ حتى زملائى فى القهوة هاجروا إلى العراق ، ولولا سنى للحقت بهم .

ـــ ربنا يعوض عليك .

فحدجه بنظرة باسمة ثم سأله :

ـــ وأنت متى تهاجر ؟

فلم يجب وارتسمت على زاوية فمه ابتسامة ساخرة فقال النادل بنبرة ودودة :

ـــ زمن المبادئ مضى وهذا زمن الهجرة .

ـــ كلامك كله حكمة .

وتجهم وجهه فبدا أكبر من سنه بعشر سنوات . أى ماض وأى حاضر وأى مستقبل . أين ومتى يقابل جلال ؟. وكيف يصارع العبث ؟. وقال للنادل :

ـــ فنجان قهوة آخر ، بن زيادة وسكر زيادة ..

ذكرى امرأة

أسير تحت العمارة الشاهقة بشارع شريف كل صباح وكل ظهر فى ذهابى إلى العمل ولدى عودتى منه إلى محطة الترام . كلما أسير تحتها يرتفع بصرى بحركة تلقائية إلى الدور الخامس حيث تطل على لافتة الجراح المعروف (....) لا لأنه من أبناء الحى القديم وأقران الصبا فحسب ولكن — وهو الأهم — لأنه تزوج من الفتاة التى استحوذت على إعجابى وحبى عهدا طويلا . لا يبقى اليوم من ذلك الحب إلا الذكرى ، حكاية قديمة لم يكد يفطن إليها أحد ، أما العاطفة المتأججة فقد بردت وماتت ، وأمست نشواتها وآلامها كأن لم تكن أو كأنما عاناها شخص آخر تلاشى فى تيار الزمن العجيب . ويوما أرى الطبيب واقفا فى الشرفة وراء اللافتة وهو يخطب .. يخطب ؟ إى والله وبصوت كالرعد ملوحا بذراعيه يمنة ويسرة كأنما ليهيمن على جمهوره المحتشد . ولكن أين الجمهور ؟ العمائر فى الصف المواجه له إما مغلقة النوافذ ، أو تنظر إليه من خلال أفراد تجمعوا فى الشرفات والنوافذ من موظفى الشركات . وعابرو الطريق وقفوا قليلا لينظروا ويسمعوا ويتبادلوا النظرات والابتسامات ثم يمضى كل إلى سبيله إلا المتسكعين فلم يبارحوا الطوار وتابعوه باهتمام . لا أتصور أن أحدا ميز كلمة مما يقول ، لارتفاع موقعه ، ولتضارب أصوات الخلق والمركبات . وتدل النظرات والهمسات على اقتناعهم بأن الطبيب خرج عن وعيه أو حصل له لطف . رغم غرابة المنظر وشذوذه وإغرائه بالضحك إلا أن جانبه المأساوى غلب وسلط الوجوم على الخلق كغبار منتشر . والحق أنى تألمت ، وملكنى

الرثاء للزميل القديم الذى فرق العمر والعمل بيننا . وطارت خواطرى محتدمة نحو شريكته فى الحياة ، لؤلؤة حيّنا التى لا تنسى ، فأسفت من أعماق القلب . ولم أحتمل البقاء طويلا خاصة بعد أن سمعت أن البعض اتصل بالإسعاف وشرطة النجدة ، فغادرت المكان مغتما ، تتقدمنى صورة الفتاة التى فتنتنى فى الزمان الأول ، وأتساءل : ترى كيف آل إليه حالها اليوم ، هل ما زالت متمتعة بجمالها الرائق ، وكم أنجبت من الذرية ، أما زالت تشتغل بالتدريس أم استغنت عنه بعد أن أغناها الله ، وكيف تتعامل مع هذا البلاء الذى ستمتحن به ؟ وتظل الواقعة حديثى مع نفسى ، ثم مع الأصدقاء فى المقهى ، حتى عرفت ختامها صباح اليوم التالى فى جريدة الصباح ، بالبنط العريض وفى أسفل الصفحة الأولى قرأت « انتحار الجراح المعروف (...) ، يلقى بنفسه من شرفة عيادته بالدور الخامس » ، شد ما تأثرت لتلك النهاية ، وكل صديق تأثر لها حينا ، رغم أن علاقتنا به انقطعت منذ التحاقه بكلية الطب . واختلطت التفسيرات ، لعله مرض لاشفاء منه ، أو نكسة مالية مفاجئة ، أو خطأ فى نطاق المهنة ، حتى قال أحدنا :

— أو جن وكفى ، ألا يجن الإنسان بلا سبب إلا الجنون نفسه ؟!

ومضينا ننسى المأساة كما ننسى كل شيء . ولكن صديقا آخر فجرها قبل أن تموت . هو أيضا طبيب من أقران الصبا ، ويقيم فى نفس الحى — الزمالك — الذى كان يقيم فيه المنتحر ، ولم تنقطع صلته به قط ، كما لم تنقطع بنفر منا . ولدى أول زيارة له فى أعقاب الحادث توفر أكثر من سبب لإثارة الموضوع .

قال لى :

ـــ أنت تذكره لا شك ، كان غاية فى الاتزان والاجتهاد .

فقلت مصدقا :

ـــ كل ما أذكره عنه حسن .

ـــ هو أيضا قمة فى مهنته وأثرى ثراء واسعا .

ـــ هذا مسلم به ولذلك تبدت مأساته لغزا محيرا !

فهز صديقى رأسه وقال :

ـــ الله لا يسامحها ، زوجته !

فهتفت بذهول :

ـــ سميحة !؟

فابتسم قائلا :

ـــ طبعا تتذكرها .

ـــ حينا كله يتذكرها ، الجمال والكمال والأدب ، المثل الأعلى للاستقامة والرزانة والحشمة فى ذهابها إلى المدرسة وحين العودة منها ، هه ، حصن منيع أمام أى عابث حتى شهد لها الجميع بالامتياز الخارق ، وحق للمرحوم أن يغبط ويهنأ يوم وفق فى طلب يدها ...

فأكمل الدكتور قائلا :

ـــ وأنجب منها ولدا وبنتا ، الولد فى كلية الطب والبنت فى الثانوية العامة ، ولكنها مع الأيام والمعاشرة تكشفت عن امرأة أخرى تماما ...

تابعته بانتباه فائق وذهول ، فواصل :

ـــ امرأة أخرى تماما ، ولولا اختلاطى بهم ما صدقت ما أسمع وما أرى .

ــ يا للعجب !

ــ هى الحقيقة ، وكم حاولت الإصلاح ولكن دون جدوى ..

ــ اعتبرناها ملاكا من السماء .

فارتسمت بسمة ساخرة على شفتيه ، وقال :

ــ جبارة متسلطة ذات رأس صلب ، تفرض رأيها بإصرار وبعنف ، لا تقبل المناقشة ، عصبية لحد الجنون ، يذهلهاالغضب عن كل شيء فتحطم التحف والأوانى ، وتسب بلا تحفظ ، ثم إنها مسرفة لدرجة جاوزت كل الحدود و لم تكن تترك له إلا مصروف الجيب ..

وصمت لحظة ممتعضا ثم قال :

ــ حتى العفة لم تسلم .

فصمت على رغمى .

ــ العفة ؟!

ــ إنى واثق مما أقول ..

ــ يا للداهية ، أكانت مجرد ممثلة ماهرة ؟!

ــ عسير على أن أتصور ذلك .

ــ و لم لم يطلقها ؟

فقال متمهلا :

ــ كان أضعف من أن يتخذ قرارا حاسما ..

فقلت وأنا من الانفعال فى نهايته :

ــ من كان يتصور ذلك ؟

ــ هو أيضا سحره المظهر ، ثم إن شكواه لم تقتصر عليها ولكن

امتدت إلى أمها وحتى إلى أبيها .

هكذا انتهت قصة الطبيب ، وقصتي أنا أيضا . تقدمني فى السباق لوفرة إمكاناته ولولا ذلك لربما كنت أنا الضحية . ولكن كيف يمكن أن أنسى صورتك الملائكية يا سميحة ؟!. ولِمَ أصدق ما يقال دون تحفظ ؟ أليس من الجائز لو جمعتنى بك الأيام يوما أن ينقلب الحكم أو يتغير ؟!

ابن الأرض ، من أسرة الأعشاب البرية ، نشأ ونما وترعرع فى البستان الذى توسط يوما ميدان العتبة الخضراء القديم . من المجهول انبثق ،لتربيه الأيدى القذرة ، تطعمه لقمة وتلبسه جلبابا وتسلبه إنسانيته . وذات يوم ــ وكان عوده قد اشتد وطال ــ أشار إليه عابر سبيل وقال لصاحبه بصوت مرتفع ضاحك :

ــ انظر ، كأنما هو الملك !

الملك !. يعرف أنه يوجد ملك . ورأى من بعيد موكبه . ماذا يعنى الرجل ؟. وتكررت الإشارة والنظرة المندهشة . أيشبه الملك حقا ؟. أيمكن أن يحدث ذلك فى هذا الوجود ؟! وسعى إلى مرآة مصقولة معروضة عند مدخل محل لبيع الأثاث فى أول شارع الأزهر ليرى صورته ، ليرى الملك . إذن فهذا هو الملك . لم تطمس شكله رثاثة الجلباب ولا قذارة الوجه وراح يغسل وجهه ويمشط شعره ويقطع الميدان بالطول والعرض فيحرز النجاح بعد النجاح ، ويتلقى الإشارات والتعليقات ، ويمضى باسما مزهوا بصورته النفيسة . وعرف فى المنطقة مع الأيام بمولانا ، مولانا صاحب الجلالة . وفسرت الظنون الساخرة الشبه العجيب بما عرف عن الملك الراحل الأب من رمرمة جنسية ، فمن يدرى فلعله .. وأليس من الجائز أن .. وما وجه الاستحالة فى أن يكون .. هكذا ألحقته السخريات بالدم الأزرق المصون لأسرة محمد على . وهو لا يعرف لنفسه أما ولا أبا فكل شيء محتمل . وجد على

الأرض ، عاريا أو فى لفة ، ونشأ فى أحضان الطبيعة مثل أجداده الأول فى العصور الغابرة . وحام مع الظنون حول أصله الرائع المجهول ، وانتظر من وراء ذلك الشبه خيرا وأى خير . والواقع أن فخامه منظره خففت عنه من بلاء التشرد وجنبته كثيرا هراوات الشرطة، فكان أكرم المتشردين وآمن النشالين.وقال له أقرانه :

ـــ إذا رفعك الحظ يوما فلا تنسنا !

فوعدهم بالخير والحماية ، وتعلق أكثر بأحلامه الخرافية . وطرقت شهرته أخيرا قسم الشرطة وذهب المخبرون ورجعوا قائلين :

ـــ الطول والشكل واللون ، إنه معجزة ..

وقرر المأمور أن يراه بنفسه ، ولما مثل بين يديه تفحصه بذهول ، ولما صرفه وجد نفسه يفكر فيه كمشكلة حقيقية . أيمكن أن يتغاضى عنه كدعابة لا وزن لها ؟. هل يأمر بمراقبته حتى يقبض عليه متلبسا ؟. لم يقنع بهذا الحل أو ذاك ، ورأى أن يبلغ الخبر إلى أحد الرؤساء فى الداخلية الذى تربطه به علاقة حميمة . وجرت التحريات من جديد ، وارتبكت مراكز الأمن العليا ، واعتبرت الموضوع بالغ الأهمية والخطورة .

ـــ قد يتكشف الأمر عن مضاعفات مجهولة ونسأل عند ذاك أين كنتم أيها السادة ..؟

ـــ والعمل ؟

واستقر الرأى على اعتقاله ووضعه فى الطور باعتباره من الخطيرين على الأمن الواجب استبعادهم . وتم التخلص من فاروق « الثانى »

واطمأنت القلوب وكاد ينسى تماما .

وقامت ثورة يولية . وانهالت المطارق على العهد البائد . وكتب أحد الصحافيين عن واقعة شبيه الملك المخلوع المنسى فى المعتقل فكانت كلمته إيذانا بالإفراج عنه ..

رجع إلى تشرده ولكن بلا حلم هذه المرة ولكنه حمد الله على نعمة الحرية . ونشرت بعض المجلات صورته فاكتسب شهرة لم تخطر له في بال . وقررت إحدى الشركات السينمائية أن تنتج فيلما يصور الفساد فى عصر ما قبل الثورة ، وكان الملك يظهر فيه فى منظر هامشى فيما وراء الأحداث ، واستدعت الشاب لتجربه فى الدور فأداءه أداء مقبولا لسهولته ، وحاز سمعة لا بأس بها ، ولكنها لم تفتح له طريق النجاح ولم تكتشف فيه موهبة ذات شأن . ورأى المسئولون أن الحديث يتكرر عن الشاب ، وأن صوره تنشر أكثر مما ينبغى . وإذا بمشكلة جديدة تنشأ من حيث لا يحتسب إنسان . وقال شخص بعيد النظر :

— شعبنا طيب ، ولا يبعد أن يوجد فيه من يعطف على الملك رغم فساده ، وسيكون وجود هذا الشاب محركا لهذا العطف ..

— إذن يمنع نشر صوره ..

— بل الأوفق أن يختفى تماما !

وظن الشاب أنه ولد من جديد ليستقبل عهدا جديدا . وأشعل الدور الصغير الذى قام به فى الفلم طموحه إلى أقصى حد ، وتوقع الخير مع طلعة كل شمس . وكلما شعر بمرارة الانتظار

قال :

ـــ إن الله لم يخلقنى فى هذه الصورة إلا لحكمة بالغة ..

ولكنه اختفى بلا سبب ظاهر . لم يعد أحد يراه فى أى من مظانه. اختفى تماما . بل يبدو أنه اختفى إلى الأبد .

حوار

(الفجر الكاذب)

فى جلبابه الأبيض الفضفاض ، جلس على أريكة تتوسط حجرة المعيشة ، وتحت طاقيته البيضاء بدا وجهه متجهما . أما هى فلم تكن تستقر على حال ، يتحرك جسمها الرشيق فى فستان البيت الوردى بين مقعد وآخر أو تنظر حينا من النافذة المطلة على الطريق الصاخب . قالت بجدية :

ـــ انتهيت إلى قرار ، أن أقيم مع خالتى .

فلوح بيده محتجا وهتف :

ـــ تهجرين أخاك لتعيشى مع خالتنا !، هذا لن يكون ، لن تتركى هذا البيت إلا إلى بيت الزوجية ..

ـــ ولكن الحياة أصبحت نقارا مستمرا .

ـــ كل شىء له سببه .

ـــ الخلاف بيننا لا يهدأ وهو يستفحل يوما بعد يوم .

ـــ إن ما أقترحه هو عين العقل .

ـــ هذا رأيك أما رأيى فشىء آخر .

ـــ أنا أخوك وأخبر منك بالدنيا .

ـــ لماذا ؟، كلانا متعلم وله عمله ، وأنا أكبرك بعامين ..

ـــ ولكنى رجل وهذه ميزة لاحيلة لنا فيها .

ـــ لا تردد ذلك من فضلك . لعل انتقالى إلى بيت خالتى ..

قاطعها بحدة :

ـــ لا ، من فضلك ،افترقنا ونحن على هذا الخلاف يهدد كلينا بكارثة ..

ـــ ما العمل ما دمنا لا نتفق فى شىء ؟

ـــ رأيى واضح مثل ١ + ١ = ٢ .

فدارت ابتسامة طارئة وهى تقول :

ـــ الواضح عندى أن ١ + ١ = ١

ـــ ما أعذبك لو ألنت صلابة رأيك .

ـــ عندى كل شىء طيب .

ـــ ما أطالبك به يقره الناس والمنطق وطبائع الأشياء .

ـــ أستطيع أن أقول نفس الوصف لما أطالب به ، ولكنك تقسو على نفسك ، حتى الموسيقى الحلوة تعرض عنها .

ـــ يا لك من ظالمة ، أليس لى أوقات فراغى أيضا ؟

ـــ ولكنك طيلة الوقت مشغول بالهموم اليومية .

ـــ هى الحياة ، لولا ذلك ما بقى لأسرتنا ما تعتز به .

ـــ فضلك مشكور ، ولكن الحياة أوسع من ذلك كله .

ـــ لو طاوعتك لرمينا بالجنون .

ـــ دعنى أصارحك بأن من الجنون ما يعجبنى .

ـــ هكذا أنت ، لا تفكرين أبدا فى العواقب .

فحدجته بنظرة متحدية من عينيها السوداوين الشهلاوين وقالت :

ـــ غاية الحكمة ألا نفكر فى العواقب .

ـــ الله ..الله .. خطوة واحدة تبقى ثم يدركنى اليأس من ناحيتك .

ـــ ما صبرت عليك إلا لإيمانى بحسن نواياك .

ـــ تذكرى عمتك ، والعاقل من اتعظ بغيره .

ـــ عمتى !.. ما أروعها !

فكبح غيظه ولكن وجهه ازداد تجهما وهتف :

ـــ مناقشة لا تعد بنتيجة طيبة .

ـــ هكذا خلقت فدعنى وشأنى .

ـــ لا .. لا .. علينا أن نتدبر أمرنا طويلا .

ـــ ما الفائدة ؟

ـــ المزيد من التفكير لا يضر .

ـــ إلا إذا جر وراءه مزيدا من التردد والخوف .

ـــ لعلك تهربين من المسئولية .

ـــ ليس فى حياتى هروب ، إنها سلسلة من المغامرات ، وكل مغامرة تحمل فى طياتها مسئولية هامة ..

ـــ والخسائر ألا يدور لها فى تقديرك حساب ؟

ـــ ما تظنه خسارة أعتبره ربحا .

ـــ أتمنى ألا تترامى خواطرك إلى الناس !

ـــ الناس .. الناس .. الناس ..

ـــ إنهم خطر مدمر .

ـــ إنهم خطر على من يهتم بأمرهم .

فقال بنبرة مرتفعة :

ـــ معى المنطق ووصية أبينا رحمه الله .

فانحرفت بعينيها عن عينيه وقالت بهدوء :

ـــ لى أيضا منطقى وهو لا يتفق مع وصية أبينا رحمه الله !

ـــ عجبا ، عرفتك دائما بارة بالوالدين .

ـــ هذا حق ولكن لكل شيء حدوده .

ـــ أليس من الجحود الاستهانة بوصيته ؟

ـــ أبدا ، طالما أننى أفعل ذلك فى سبيل الحياة التى أحبها ، والتى علمنى كيف أحبها وأحترمها ..

ـــ هو أيضا كان يحب الحياة .

ـــ الحياة التى أحبها غير الحياة التى أقبل عليها .

وتبادلا نظرة مليئة بالانفعالات ، وفصل بينهما صمت كئيب ، حتى تساءل :

ـــ والعمل ؟

فقالت بأسى :

ـــ آسفة على الإزعاج .

ـــ لا يمكن أن أفرط فيك .

ـــ ولكننا لا يمكن أن نتفق .

ـــ الانفصال يعنى كارثة لكلينا .

ـــ ليس الأمر كما تتصور .

ـــ يجب أن نستمر معا مهما كلفنا ذلك من عناء .

ـــ وهل نتحمل النقار ووجع الرأس إلى الأبد ؟

ـــ بل إلى أن نجد ملتقى للاتفاق .

ـــ أخاف أن يكون ذلك وهما يا أخى .

ـــ أبدا ، المهم ألا تنفذى قرارك الأرعن بهجر بيتنا .

ـــ معذرة ، لولا أزمة المساكن ما كان يجب أن نبقى فيه يوما واحدا .

ـــ هو اليوم نعمة كبرى إذا قيس بسكنى المقابر .

ـــ أعترف أنه أحسن قليلا .

ـــ لا تسخرى يا جاحدة ، أتنكرين أنه شهد أسعد أوقاتنا ؟

ـــ بلى ، ولكن ماذا يشهد اليوم ؟

ـــ وبيت خالتك ليس بالجنة على أى حال ، إنها تنظر إلينا من فوق !

ـــ ولكنى أستطيع أن أتفاهم معها بسهولة ..

ـــ إنها تحتقرنا ، أشك أحيانا أنها شقيقة أمنا ، وهى فى نظرى مسئولة مسئولية كاملة عما حصل لعمتك ..

ـــ عمتى !، أين نحن من عمتى ؟!

ـــ اسمعى ، لا أبرئك من الانتهازية !

فضحكت قائلة :

ـــ الله يسامحك ..

ـــ المهم ألا نفترق وألا نيأس من الاتفاق .

فقالت بنبرة واضحة :

ـــ لا تتوقع تنازلا من ناحيتى .

ـــ ولا تتوقعى تنازلا من ناحيتى .

ـــ إذن فلن نجنى إلا تعب القلب ووجع الرأس .

فقال بجدية ورجاء :

ـــ وأيضا الوفاق ..

خيال العاشق

تزوج على الصناديقي من زينب رأفت بعد انقضاء عام كامل على مقتل زوجها السابق وابن عمها سليمان عيسى . أرعشتني قشعريرة وقلت لنفسي بحسرة « سبقني ». ولعل أكثر من شخص في شارعنا ردد ما قلت فيما بينه وبين نفسه . زينب وردة حينا اليانعة ، استبقنا جميعا إلى طلب يدها ولكن أمها الشركسية المتعجرفة زوجتها ابن عمها سليمان . ساقط ابتدائية متخلف العقل ومن ذوى الأملاك والدنيا حظوظ . يمين الله ما عرفنا الحزن الجماعي كما عرفناه في تلك الأيام . ومضى كل يضمد جراحه بالطريقة التي تناسبه . واكتشفت جثة الزوج ذات صباح بعطفة الحفناوى ، واكتشفها أول ساع للرزق ، بياع اللبن . قتل وهو راجع إلى مسكنة آخر الليل . كانت الشوارع والحوارى الفرعية تسبح في الظلام لم تدخلها الإنارة بعد . وكان الرجل من هواة السهر ويعود كالعادة سكران أو مسطولا ، وجاءت التفاصيل ـ كما وردت في كوكب الشرق ـ مؤيدة مصرعة بضربة عصا غليظة أو آلة حادة على أم رأسه . ووضح أن الباعث على القتل هو السرقة فقد جرد من ساعته الذهبية وخاتمه الماسي ومحفظته . وزلزلت الجريمة الحي كله ، وصارت حديث النساء والرجال في العباسية شرقيها وغربيها ، وتنبأ أهل الخبرة بأن شيطان القتل لن يدعنا في سلام . وتبادلنا النظر في مقهى قشتمر في وجوم ، معلنين الأسف ، كاتمين أي بادرة ارتياح . وأرجعني نواح زينب إلى الماضي فاستثار المنسي من الذكريات . ولاحظ الفران أن عامله

« بيضة » ينفق عن سعة ، وأنه يبتاع الكونياك من خمارة الميدان بدلا من الكحول الأحمر الذى كان يشتريه كل مساء من البقال ، فسأله عن الخبر فاعترف الرجل المدمن بأنه عثر على محفظة فى عطفة الحفناوى فاعتبرها رزقا من الله. وبلغ الفران قسم الوايلى فقبض على بيضة وحقق معه ثم حول إلى المحاكمة بتهمة القتل والسرقة وقضى عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة .

هكذا انتهت قضية قتل سليمان عيسى . لا شك أن الحلم القديم استيقظ فى قلوب كثيرة . واستيقظ فى قلبى على وجه اليقين ولكنى انتظرت الوقت المناسب . كل عاشق قديم رسم خطة وانتظر الوقت المناسب طاويا صدره على سره . وعلى الصناديقى فعل مثلنا ولكنه كان أقدر منا جميعا على تدبير المناورة وانتهاز الفرصة كما كان ـ باعتراف الجميع ـ أجرأنا على الاقتحام ، وفاز باللذة الجسور . كنا جميعا من صغار الموظفين أما هو فقد ورث عن أبيه محل منى فاتورة بالغورية فحاله المادية معدن بالإضافة إلى خبرة مبكرة بالحياة وتمتعه بإرادة صلبة وفحولة نادرة . فى الوقت ذاته هدهدت أم زينب من عجرفتها بسبب ترمل ابنتها الجميلة واقتران اسمها بحكاية مصرع زوجها فوافقت على الزوج الجديد مزدردة امتعاضها التقليدى . وكان من عادتى أن أعالج أحزانى بالمشى المنفرد فى ميدان المستشفى الفرنسي وأرض المولد النبوى . ولما مررت بالبيت رقم ١٠ المكون من دورين على ناصية الميدان دهمتنى ذكرى قديمة بعض الشيء فدق قلبى دقة عنيفة انطلقت كإنذار مرعب . لا لأن على الصناديقى وعروسه يقيمان فى الدور الأول ولكن لمنظر تكرر مرتين قديما دون أن يثير ظنونى فمر بسلام . تذكرت أننى رأيت زينب فى حياة زوجها

السابق تدخل هذا البيت مرتين . يومها اعتقدت أنها تقوم بزيارة وانتهى الأمر . الساعة يلوح لى وجه آخر للمسألة . فى ذلك الوقت كان الصناديقى يقيم فى الدور الأول بمفرده بعد وفاة أبيه !. قد يقال إنها كانت تزور أسرة الشيخ محرم — أستاذنا القديم — المقيمة فى الدور الأعلى ولكن الشك يساورنى فى ذلك . لم ؟ إلام تريد هواجسى أن تقودنى ؟!. أكان ثمة علاقة بين الصناديقى وزينب ؟!. الصناديقى من ناحيته مثال اللاستهتار والمجون ، لا يرعوى عن فعل ، ولا يعقله أدب أو خلق ، وزينب من ناحيتها اعتبرت فى زمانها عصرية و لم يكن للدين ولا التقاليد أثر ملموس فى بيتها . وحتى لو كان السبب المعلن للتردد على البيت هو زيارة آل محرم فهل يمنع ذلك من التسلل إلى مسكن الصناديقى عند الذهاب أو الإياب ؟!. ليس شكا ما أتخيل ولكنه اليقين . وهى لم توافق على الزواج منه رغم كثرة المريدين إلا استجابة لتلك العلاقة الآثمة القديمة . لم لا ؟ يقينا إنها لم تحب زوجها السابق و لم تحترمه ، ولولا سطوة أبيها ما قبلت أن تتزوج منه . وقد انصرف عنها جميع عشاقها احتراما لقدسية التقاليد المرعية ، ولكن الصناديقى لم ينصرف و لم يسل ، ولم يجد من قيمه ما يصده عن المغامرة . وأصر وألح حتى استجابت المرأة لعواطفه ولبت نداءه . حاولت أن أنفض عن رأسى تلك الأفكار المحمومة ولكننى لم أستطع ، وطاردتنى كأنها حقيقة واقعة . وليتها وقفت عند ذلك الحد ولكن ثمة فكرة سوداء انطلقت كما ينطلق عفريت من قمقم ، وسوست لى بأن الصناديقى يكمن فى قاع الجريمة التى أودت بحياة سليمان عيسى !. لم لا ؟. إنه الوحيد بين أقراننا القادر

على القتل . طالما عرف بيننا بالانفعال الأهوج والعدوان ومعاركه الشخصية لا تحصى . ولا أنسى دهشتنا يوم وجه الاتهام إلى « بيضة » عامل الفرن ، فإن أكثر من فرد قال :

ـــ بيضة !.. من يتصور أن بيضة يمكن أن يقتل ؟

ولكن البعض تفلسف قائلا إن أبعد الناس عن شبهة القتل قد يقتل فى لحظة جنون !. كلا . بيضة لم يقتل ولكن سوء حظه ساقه للعثور على المحفظة التى تركها القاتل لإيهام الشرطة بأن السرقة كانت الباعث على الجريمة لا الحب.دبر الشيطان فأحسن التدبير ولكن هل شاركته زينب فى مؤامرته ؟. عند ذاك الفرض خذلنى خيالى المحموم ، أما جريمة الصناديقى فقد تمثلت لى حقيقة واقعة . عبثا .. عبثا .. حاولت التملص من قبضتها . فى الوقت نفسه لم أفاتح أحدا بما يمور فى أعماقى . أكره أن يسخر منى ساخر أو يتهمنى بالجنون . وأسترق النظر إلى الصناديقى ونحن بمجلسنا بمقهى قشتمر فأراه هادئا أو ضاحكا ينبض وجهه المتورد بحلاوة شهر العسل . أيمكن أن تمضى الجريمة بلا أثر تخلفه فى القاتل ؟!. وأراه أحيانا يسير فى الشارع وزينب تتأبط ذراعه كأكمل ما يكون الزوجان سعادة فأذكر بأسى بيضة الملقى فى ظلمات التأبيدة بلا ذنب . وأتساءل أين العدل وأين الرحمة ؟. وأحاول مناقشة أخيلتى وتفتيتها فلا أستطيع ، ولا أجد من أشركه فى سرى لعله يخفف عنى بعض ثقله . وقلت لنفسى منذرا :

ـــ إنى مريض ، ولا بد من الشفاء قبل أن أتردى بلا أمل

وخطرت لى فكرة لم أتردد فى تنفيذها . حررت إليه خطابا غفلا من

الإمضاء وسجلته على الآلة الكاتبة فى الوزارة . فى جمل برقية أكدت له أنى على علم تام بجريمته ، وبعلاقته الآثمة السابقة بزينب ، وبكل خطوة خطاها فى ارتكاب جريمته ، وتهددته بالانتقام القريب . وعنونت المظروف بعنوان مقهى قشمر «وأودعته» صندوق البريد بيدى . كنا نجتمع كل مساء بالمقهى ، ومرة جاء النادل بالخطاب للصناديقى وهو يقول :

— تسلمته من عامل البريد صباحا .

تناوله الشاب بدهشة قائلا :

— أول خطاب يجيئنى فى المقهى ..

وعلى سبيل الاحتياط تنحى جانبا ليقرأه . أثار الخطاب اهتمام الجماعة لحظة ثم انخرطت فى السمر . وجعلت أنا أراقبه من وراء وراء ملهوفا على رؤية رد الفعل . هل يضحك ساخرا ، هل ينفعل ويغضب ؟. لا هذا ولا ذاك . وجم وسكن وانخطف لونه . غاض من وجهه التألق والعنفوان . جمد وخمد وكأنه نام . والتفت أحدنا نحوه متسائلا :

— خير ؟

فأجاب وهو يدس الخطاب فى جيبه ويرجع إلى مجلسه :

— ليست خيرا على أى حال !

— لم والعياذ بالله ؟

— مشكلة من مشاكل العمل ولكن لا خطورة فى الموضوع .

ونظر فى ساعته ثم قام وهو يقول

— يستحسن أن أقوم بزيارة عاجلة .

وحيّى وانصرف . لم يعد ثمة مجال للشك . انكشف المجرم و لم أخطئ فى الحساب . ولكن ماذا بعد ؟!. لم يحضر فى اليوم التالى ولا ما تلا ذلك من أيام . وسأل البعض عنه فى بيته فقيل لهم إنه مشغول . وعلمنا بعد ذلك بأنه سافر فى مهمة عاجلة إلى سوريا ولكنه لم يعد من مهمتة حتى اليوم !. واضطرت زينب إلى الإقامة مع أمها فى شارعنا . وعرفنا — كجيران — أنها مرضت بمرض عصبى ، وأنها تعالج بالطب وعولجت أيضا بالزار ولكن دون جدوى . هكذا انتهت أسطورة زينب الجميلة وبدأت رحلة زينب المريضة إلى الأبد . لم أشعر بالنصر أو الارتياح إلا لحظات عابرة . اعترانى قلق وتطايرت برأسي الهواجس وخيم على قلبى هم ثقيل . ماذا فعلت ؟.. ما جدوى ما فعلت ؟.. ما دور زينب الحقيقى فى المأساة ؟ وماذا أفاد ضحية الليمان من هذا كله ؟. حقا تخيلت وحكمت على الآخرين ولكن كيف يكون الحكم علىّ أنا ؟!

غدا تغرب الشمس

فقد الطعام سحره وجاذبيته،ليست بالحال العارضة التى يصبر عليها يوما أو يومين . وعليه فيجب أن يستشير طبيبه،طالما عد نفسه من السعداء لاقتناصه ستين عاما من الزمن وهو على أتم ما يكون من الصحة والعافية . ورغم نشاطه المتواصل كرجل من رجال الأعمال فلم يهمل جانب الأناقة والرياضة فى حياته الثرية ، يتبدى دائما فى أجمل صورة ويحسن السباحة والتنس ولا تفوته الرعاية الدقيقة لصحته ، زار طبيبه بميدان الأزهار . وفحصه الرجل بعناية وعلى مهل . ثم قال :

ـــ الكبد .

ندت عن يده حركة كالاحتجاج وخاطبه كصديق قائلا :

ـــ أنت تعلم أننى معتدل جدا فى الشراب .

ـــ لا بد من أشعة .

هذه الإجراءات هى ما تضايقه فى الطب الحديث ولكن لا سبيل إلى التراجع.وصعد إلى الدور السابع بنفس العمارة مسبوقا بتوصية تليفونية . فالتقطت له صورة . ذهب بها إلى طبيبه فى مساء اليوم التالى . وقرأها الطبيب ثم قال بإيجاز :

ـــ لا بد من تحليل الدم .

وساوره قلق جدى لأول مرة باعتباره ذا تجارب مأساوية سابقة فى أسرته . فقال :

ـــ فى الأمر اشتباه .

ـــ سيسفر عن نتائج حميدة بإذن الله .

ومضى إلى معمل التحليل مهموما مغتما . وانغرزت الإبرة فى كبده

مصحوبة بآلام لم يتوقعها .

وفى مساء اليوم التالى ذهب بالنتيجة إلى الطبيب وقال للطبيب وهو يتفحصها :

ـــ صارحنى بالحقيقة الكاملة . إنى مستعد لذلك .

فقال الرجل بجدية :

ـــ هيهات أن يسهل خداعك ..

فقال متظاهرا بالبساطة :

ـــ إذن فهو ما كنا نخشاه .. ؟

أجاب بإيماءة من رأسه فقال المريض :

ـــ وإذن فلا شفاء ولا دواء ولكن مجرد مسكنات !

ـــ بل يرجى إيقاف الورم وليس هذا بالإنجاز القليل .

ـــ أتنصحنى بالسفر إلى الخارج ؟

ـــ ما كنت لأتأخر عن اقتراحه عليك لو أفاد .

وتفكر قليلا ثم سأله :

ـــ هل يمكن أن تحدد لى المدة الباقية من حياتى .

فقال بعجلة .

ـــ كلا . الأعمار بيد الله وحده .

ـــ ولو على وجه التقريب ؟

ـــ كلا . كلنا أمام الموت سواء . وقد يسبقك إليه جميع الأصحاء من أصحابك ؟

فقال برجاء :

ـــ جنبنى الألم ما أستطعت .

ـــ هذا متيسر .

بين يوم وليلة . بل فى غمضة عين،مذهل حقا مذهل،خاطب نفسه بقوة « حذار من الانهيار » وقال لها أيضا « سلمى بهذا الواقع كأى واقع آخر » من أول لحظة قال له عقله كلاما مليحا ولكنه لم يستطع أن يخلصه من قبضة الهزيمة والخوف والأسى . وقال له صديق :

ـــ ليتك تستطيع أن تتناسى الموضوع .

فقال :

ـــ هذا ما أحاوله . وإلا فلن أنجز شيئا .

أجل ، أمامه واجبات معقدة كثيرة . أو كما قال لنفسه « لولا الأسرة لقمت بسباحة حول الأرض غير مبال بشيء » وفكر أول ما فكر فى عمله فراءى له لأول وهلة أن يتخلى عنه لنائب عنه ، ولكنه سرعان ما استبعد الفكرة ما دام أن العمل سيشغل وقته وينقذه زمنا لا يستهان به من الوحدة والأفكار المضادة . وانهمك فى توزيع ثروته ومشاورة محاميه بما يحقق الاستقرار لأهله وتوفير الضرائب التى يمكن توفيرها . ولم يبح بسر مرضه إلا لزوجته أما الأبناء فقد رسم خطة لإعدادهم للنهاية دون إزعاج لا ضرورة له قبل الأوان .. وواصل ترشيده لهم فى الأمور التى تهمه كالجنس والمخدرات وشئون المال والعمل . والحق أن انهماكه فى ذلك كله خفف من قسوة محنته وبخاصة فى إبان حدتها وشدتها . واستعاد شهيته للطعام ولم يشعر بأى ألم مما هجست به نفسه ، ومارس رياضاته المحبوبة باعتدال . ووجد امتنانا كبيرا للعلم وما أبدعه من مسكنات ، ولم

ينقطع عن ناديه وأصحابه ولا عن شجون الحديث فى الاقتصاد والسياسة . وكلما ألمت خاطرة سوداء ردد فى باطنه قول طبيبه وصديقه « كلنا أمام الموت سواء » بل إنه مع مرور الزمن أخذ يؤمن بأن مرضه أتاح له فرصا لم تكن مهياة من قبل .

ألم يستعد لأمور كثيرة كان يمكن أن تترك معلقة وأن يشقى بها أهله ؟

واعترف أيضا بأنه خفف من عبء الدنيا الذى حمله على كاهله طويلا وفى معاناة مستمرة . حقا ما زال يواصل عمله ولكن هان توتره العصبى الذى لم يرحمه جل حياته . إنه يعمل من أجل الدنيا ولكنه لم يعد أسيرا فى قبضتها . وانجابت عن وجدانه مخاوف كثيرة طالما ناوشته مع كل طلوع شمس . موت أول ابن له فى عز الشباب ، ماذا يعنى الآن ؟! حسده لأقران له لعبوا دورا أكبر من دوره فى تاريخ وطنه . تدبير الدولارات اللازمة لشراء مستلزمات الإنتاج . الركود الاقتصادى والخوف من العجز عن تسديد بعض الأقساط للبنوك . مستقبل البلد السياسى وما ينذر أمثاله من تقلبات مجهولة .

أجل يصح له اليوم أن يتساءل عما ينتظره بعد الموت . إنه لم يدخل فى حياته جامعا إلا فى مناسبة دعى فيها ضمن من دعوا ليكونوا فى شرف استقبال رئيس الجمهورية . لم يؤد فريضة دينية قط ولا يعرف عن دينه شيئا يذكر . ولكنه يعتبر نفسه من المؤمنين بالله ورسوله . ويؤمن بأن الله أرحم الراحمين بمخلوقاته . فضلا عن أنه لم يرتكب فى حياته إثما كبيرا كما كان كريما مع الفقراء من أقاربه وأصدقائه. ولم يفكر فى أن يعرف من شئون دينه ما فاته أن يعرفه خشية أن تفتح له المعرفة أبوابا تفسد عليه

صفوه وطمأنينته إلى رحمة الله . أقنع نفسه بأن إيمانه البسيط سينقذه بلا حاجة إلى مزيد.ومرت له لحظات خيل إليه أنه اليوم أسعد مما كان أمس . وعجب لذلك عجبا شديدا . أكان يضمر كراهية لحياته الماضية رغم الصحة والنجاح ؟ . أكان يجاهد وهو لا يدرى ليتحرر من قبضتها العاتية ؟ هل ضاق بأن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا وود أن يتعامل معها كأنه يموت غدا ؟

وقال لصديقه يوما وهما يتناجيان :

ـ المرض لقننى درسا ، وهو : أن الموت صديق فى ثياب عدو .

على ضوء النجوم

فى الصباح الموعود تجمع الفريق وهو على أتم الاستعداد . الشتاء يطوى ذيوله والجو ينفث فى الأرواح الحيوية والنشاط . ارتدى كل فرد بنطلونا صوفيا « وبلوفر » رماديا ، وغطاء رأس من القطن الأبيض ، وانتعل حذاء من المطاط . وجىء بشاحنة متوسطة فحملت بالأطعمة الجافة وقوارير المياه . وهلّ علينا رجل فارع الطول واضح الملامح مهيب الطلعة ، مثلنا فى زيه كأنه واحد منا غير أنه يطوق عنقه بقلادة تدلى منها صفارة فضية فوق صدره العريض . قال بصوت جهير :

— أنا مرشدكم ، والله يوفقكم ، هل اطلعتم على التعليمات ؟

فأجبنا بالإيجاب ، فعد ثلاثا ثم قال :

— سيروا ورائى على بركة الله .

فمضت القافلة تخترق الصحراء والسيارة تتهادى وراءها . رحلة كل عام ولعبته التى تجرى تحت رعاية اتحاد الأندية الرياضية . يسير الفريق وراء المرشد ، وعلى كل أن يخمن الواحة التى يقصدها ، معتمدا على ما حصل من معلومات عن الصحراء ، ومن يصدق تخمينه يحصل على الجائزة السنية . والجائزة لا تقسم ، وينالها كل فائز وإن تعدد الفائزون . سرنا مع طلوع الشمس ، يخيم علينا الصمت ، نستذكر التعليمات حتى لا نخرج من السباق لهفوة عارضة ، ونمارس ما أوتينا من قوة ملاحظة وفطنة ومعرفة يحدونا الأمل فى الفوز . المنظر يتمادى ، وتختفى من أبعاده المعالم ، ويمضى على وتيرة واحدة تبعث على الملل . وقاومت الرمال أقدامنا ، واقتضتنا جهدا إضافيا ، وثقل الوقت ، وتساءلنا ألا يوجد محطات للراحة ؟. شعرنا بالحاجة إلى

الكلام لولا أنه ممنوع ، أما مخاطبة المرشد فتعتبر خطيئة . إنها رحلة ممتعة وواعدة ، ولكنها شاقة أيضا ، بل شاقة فوق ما تصورنا ، ولا يخبرها بحق إلا من يكابدها . وحدث أن تبادل زميلان كلمة بسبب لا ندريه وإذا بالمرشيد يتوقف عن السير ويلتفت نحوهما كانما رآهما بعين ثالثة ، وقال بحزم :

— إلى السيارة .

قال أحدهما :

— سألته عود ثقاب لأدخن .

فقال المرشد بصرامة :

— التدخين ممنوع أيضا ، اذهبا ...

ولاح القهر فى وجهى الرفيقين ولكنهما أذعنا لأمره مرغمين فرجعا إلى السيارة يجران ذيول الخيبة .

وقال بوضوح :

— واجبى لايتضمن أى تساهل مع المتسيبين أو الكسالى أو المنحرفين ..

وعند الضحى أوشك أن ينهكنا التعب . وفترت قوانا فى الملاحظة والمتابعة . ووضح لنا أنها رحلة شاقة بكل معنى الكلمة وامتحان قاس للكرامة وإن جرت فى إطار الرياضة.وتراءت لكثيرين لهوا ولعبا . واشتد الوقت وغلظ ، وتاقت أنفسنا إلى لمسة من الراحة ، وإذا بالمرشد ينفخ فى الصفارة ليشد الانتباه إليه ، ثم يصيح بنا :

— عليكم أن تفعلوا مثلى .

واندفع يجرى جريا هادنا مع رفع الساقين وتحريك الذراعين . حلمنا بدعوة إلى الراحة لا إلى مضاعفة الجهد . واضطررنا إلى محاكاته بقلوب حانقة ووجوه مكفهرة . وارتفعت الشمس نحو كبد السماء مرسلة أشعة ساخنة رغم عذوبة الهواء . وتعثر شاب فندت عنه آهة وتوقف مغلوبا على أمره ، فصاح المرشد :

ـــ إلى السيارة !

هكذا خرج سيئ الحظ من السباق ، وأمدنا خروجه بشىء من الصلابه والصبر ، ولاحت عن بعد صخرة عاتية ، كأنها صغيرة ، تشبه إلى حد ما رأس أبى الهول من الخلف ، فاتجه الرجل نحوها ، ولما بلغها نفخ فى الصفارة مرة أخرى ووقف ، فوقفنا ونحن نلهث ونكاد نسقط إعياء ، والتفت نحونا وقال :

ـــ جلسة للراحة وتناول الغداء .

افترشنا الرمال ، ووزع علينا رجال السيارة لفافات وقارورة صغيرة من المياه . وفى صمت جعلنا نحل أربطة اللفافات ، فوجدنا رغيفا وبطاطس وقطعة من الطماطم وشريحة من اللحم البارد وبرتقالة . التهمنا الطعام بشهية عظيمة وارتوينا ثم استلقينا على ظهورنا طلبا للاسترخاء أو النوم . وسأل أحدنا المرشد ببراءة :

ـــ هل يمكن أن أدخن سيجارة هنا ؟

فقال الرجل بهدوء :

ـــ أذهب إلى السيارة !

وجم الشاب ، وندت عن جار له ضحكة ساخرة فقال المرشد للضاحك :

— وأنت معه فورا !

ونظر الرجل نحوهما بتحد فلم يجدا بدا من الإذعان لمشيئته . وقام قبل أن ننال كفايتنا من الراحة فنفخ فى الصفارة ، وعدّ ثلاثا ، ثم واصل السير . تبعناه ساخطين وصامتين . أيكون هذا الرجل مثاليا أم ساديا ؟! . وقلت لنفسى : صدق من قال إن السلطة تكشف فى صاحبها عن أحسن ما فيه وأسوا ما فيه معا . وتذكرت من نصحونى بعدم الاشتراك فى هذا السباق ، ولكننى لم أنس كيف يتباهى الفائز فيه بما أحرز على مدى العمر . وأعملت فى الملاحظة والاستذكار جماع ما أملك من قوة ومعرفة . حقا إنه سباق يتطلب قوة فى الملاحظة وصلابة فى الإرادة وصفاء فى الذاكرة وتألقا فى الذكاء بالإضافة إلى ما يحتاجه من شدة الصبر والاحتمال والشجاعة وضبط النفس ، وحسن السياسة مع مرشدنا الجبار وسارع إلينا التعب وساورتنا الهواجس وتوقعنا من ناحية المرشد مفاجاة جديدة تفوق سابقتها فى عنفها . ومع ميل الشمس نحو الأفق انخفضت درجة الحرارة ونضح الهواء ببرودة غير مؤذية ، وزادت سرعته فأنذر بهبوب عاصفة . ووهنت عزيمة شابين فتخلفا عن السباق باختيارهما ولاذا بالسيارة فى كآبة واضحة . وتساءلت فيما بينى وبين نفسى ألا يجوز على هذا الرجل ما يجوز علينا من التعب ؟ ، لماذا يبدو وكأنما قد من عجينة غير عجينة بقية البشر ؟! . وحدث ما توقعناه فغير الرجل إيقاع السير واندفع يجرى بسرعة جديدة مضاعفة . بدأنا الجرى والليل يهبط ، وخضنا الظلام على ضوء النجوم الخافت معرضين طوال الوقت لشىء نرتطم به أو شىء يرتطم بنا ، أو حفرة نقع فيها أو منحدر ننزلق عليه ،

وتعذر علينا الاستمرار فى الملاحظة والتفكير حتى خيل إلى أن الحظ وحده كان وراء من فاز فى هذا السباق فى الأعوام السابقة . وأخيرا وبعد الإشفاء على اليأس انطلقت الصفارة وارتفع صوت المرشد آمرا بالوقوف . وقفنا ونحن من الإرهاق فى حال . ولعلنا لم نعد نطمح إلى الجائزة مؤثرين السلامة . وقال الرجل :

— العشاء ، ثم النوم ، نستأنف السير عند منتصف الليل ، وبعد مرور ساعتين من التحرك تجمع البطاقات مسجلة عليها الأجوبة ، نبلغ هدفنا بمشيئة الله عند طلوع الشمس ...

وجئ بكلوب مضاء فعلق فى طرف عامود وغرز فى الرمال . وجدنا أنفسنا على مبعدة يسيرة من تل كبير ، ووزع علينا العشاء وهو تكرار للغداء . كما وزعت علينا الأغطية والحشيات السفرى . واقترب المرشد من أحدنا ونحن نتناول طعامنا وقال له بخشونة :

— معك قارورة خمر جرعت منها مرتين ، اذهب إلى السيارة ..

وصرخ الشباب غاضبا :

— بيننا جاسوس دنئ ..

فصاح به :

— هات القارورة واذهب إلى السيارة .

فقال بتحد :

— ليس معى قارورة .

— لا تعرض نفسك للتفتيش .

— لن أسمح لأحد بتفتيشى .

— لن تسمح ؟!

ومد نحوه يده فدفعها الشباب بجرأة غريبة . عند ذاك لطمه على وجهه لطمه عنيفة طرحته على الأرض . وفجأة اشتعل غضبنا جميعا و لم نعد نبالى بالسباق ولا بالتعاليم . وتطايرت أصواتنا الهادرة :

— أى إهانة ! .. لا نقبل الاهانة .. لكل شيء حدود !

تصفح الرجل وجوهنا بهدوء منذر ثم قال :

— هذا تمرد عام ، وإنى أعلن إلغاء الرحلة ، سوف تحاكمون أمام مجلس إدارة الاتحاد ، وسأنسحب فورا ودون تردد .

وذهب الرجل إلى السيارة يتبعه رجاله حاملين الكلوب . و لم تمض دقيقة حتى تصاعد هدير السيارة ، وتحركت بمن عليها حتى غابت فى الظلام تاركة فريقنا بلا مرشد . وقفنا جميعا فى دائرة واحدة ، ذاهلين من المفاجأة ، حائرين أمام وحدتنا الضائعة ثم تفجر الحوار بيننا :

— كيف يجرؤ على تركنا فى الصحراء بلا مرشد ؟

— سنرفع خصومتنا معه إلى اللجنة العليا .

— ولكن علينا الآن أن نفكر فى موقفنا .

— نبقى فى مكاننا حتى يطلع الصباح .

— بل لا بد من التحرك فكل دقيقة لها ثمنها .

— فى أى اتجاه يكون التحرك ؟

— توجد ولا شك تخمينات شتى ، نقترع عليها ونأخذ بالأغلبية .

وتضاربت الآراء و لم يكد يتفق اثنان على رأى ، وبعد مناقشات عنيفة تمخض النقاش عن خمس فرق . ورجعنا إلى الحوار تحت وطأة

المسؤولية الثقيلة :

— قد نتوه فنموت عطشا أو جوعا .

— أو نتعرض لوحش أو ثعبان أو قاطع طريق .

— لا مفر من المغامرة .

— ألا يحسن بنا ان نبقى فى مكاننا حتى يعثروا علينا ؟

— لا تعلل نفسك بأمان قد تصدق أو لا تصدق ، لم يبق لنا إلا الاعتماد على النفس .

ومضت كل فرقة إلى وجهتها ، واضعة ثقتها فى رأيها ، يحدوها الأمل فى السلامة ، ينبسط أمامها مصير ملىء بكافة الاحتمالات فى ذلك الليل البهيم ، وكأنهم على موعد مع طلوع الشمس .

الجرس يرن

نظر فى مذكرته ليراجع رءوس المسائل المطلوب إنجازها . هالته كثرتها . كلما ألقى عليها نظرة غبط من يستخدمون السكرتيرين لإنجاز الأعمال ولكن موارده لا تسمح بهذا الترف . ارتدى بدلته ليزور ابنته بعد انقطاع طال فى غمرة شواغله . ولما اقترب من باب الخروج رن الجرس فعجبَ للطارق على غير موعد فى هذه الساعة من الغروب . خاف أن يشغله عن زيارة ابنته التى تنتظره للعشاء فمضى بخفة نحو العين السحرية ونظر فرأى وجهه واضحا تحت ضوء السلم . انقبض صدره انقباضا ثقيلا فتراجع إلى الصالة بنفس الخفة التى جاء بها عاقدا العزم على إهماله حتى يعتقد أن الشقة خالية فيذهب إلى حال سبيله . آخر من يود أن يلقاه وهو يعلم أن لقياه يعنى اختلال المواعيد وانقلاب الموازين . الجرس يرن ، ينقطع وقتا ثم يعود إلى الرنين ، متى يسلم بأن الشقة خالية ؟. سيسأل البواب ، سيقول البواب إنه فى الداخل ، أو أنه خرج دون أن ينتبه إليه . الجرس مستمر معلنا تصميم صاحبه وعناده . ولكنه سيصمت عاجلا أو آجلا . وانتقل إلى حجرة المكْتب المطلة على مدخل العمارة ، وقف فى الظلام وراء خصاص نافذة ليراه عند ذهابه يائسا . لاذ بالصبر حتى سكت الرنين تماما . لم يشهد خروجه ولكن يحتمل أنه غاب فى زحمة الطريق . ذهب على أطراف أصابعه إلى العين السحرية ونظر . وخنقه الغيظ أن يراه واقفا فى هدوء . ماذا ينتظر ؟. ولِمَ كف عن دق الجرس ؟. هل شك فيه فتلفع بالصمت ليوقعه ؟. ورجع إلى حجرة المكتب وهو من الحنق فى نهاية . وطلب ابنته بالتليفون .

ـــ آلو .

ـــ أنا والدك.

ـــ لا زلت فى البيت ؟

ـــ صاحبنا واقف أمام الباب .

ـــ أعوذ بالله .

ـــ سأتركه حتى ييأس ، ربما تأخرت قليلا .

ـــ أنا منتظراك ومعى الأولاد .

ـــ إلى اللقاء يا حبيبتى ..

وقف وراء الخصاص يراقب الطريق . ولم يطل انتظاره هذه المرة . رآه يغادر العمارة ويتوارى فى الشارع الجانبى . تلقى دفقة منعشة من الارتياح والسرور . وتريث دقائق ليطمئن إلى ابتعاده تماما عن مجال تحركه . ومضى إلى الباب ففتحه . وإذا به يجده واقفا ينتظر فى صبر وتصميم . ذهل . أدرك من فوره أنه خدعه وغلبه . وتمالك نفسه متظاهرا بالدهشة . وتمتم :

ـــ أهلا .

تساءل الآخر وهو يدخل قبل أن يؤذن له :

ـــ ألم تسمع الجرس ؟

ـــ أبدا ، قمت من النوم متأخرا فهرعت إلى الحمام ، ثم ارتديت ملابسى بسرعة لموعد هام . آسف !

قال القادم :

ـــ أزف الوقت ، حسن أن أصادفك مستعدا . ولكن عليك أن تغير رباط الرقبة ..

فقال باهتمام :

ـــ ابنتى تنتظرنى الآن .

ـــ مهمتنا لا تقبل التأجيل .

ارتبك ، فى الوقت نفسه تنبـه إلى وقوفهما فى المدخل فقال :

ـــ لا مؤاخذة .. تفضل بالجلوس فى الداخل .

ـــ لا وقت لذلك يا عزيزى ..

ـــ لكنها مفاجأة غير مسبوقة بميعاد .

ـــ من المتفق عليه أن أحضر فى الوقت المناسب دون ميعاد .

ـــ يوجد أكثر من وسيلة لتنبيهى .

ـــ أنت أول من يعلم بشواغلى التى لا تترك لى فراغا .

فتساءل برجاء :

ـــ ألا يمكن أن تؤجل المشوار للصباح ؟

ـــ حقا إنى أبدو فظا ولكن الأمر ليس بيدى كما تعلم .

ـــ البنت كبيرة الرجاء فى أن ينهى محضرى الحل المناسب لمشكلة طارئة .

ـــ يا سيدى الفرص لا تنقطع وما أكثر المشكلات التى تُحل بلا حلاّل .

فقال برجاء أخير :

ـــ لا شك أنك تعلم بمدى احترامى لك .

ـــ علم الله إنها عاطفة متبادلة ولكن العمل لا يرحم فضلا عن أنه ينجز لصالح الجميع .

ـــ طيب ، جارى أنت تعرفه طبعا ، مشكلتنا واحدة ، يمكن أن يحل محلى اليوم .

ـــ لا .. لا .. لا .. دوره أبعد مما تتصور .

ـــ هل يتغير نظام الكون إن لم نذهب هذا المساء ؟

ـــ بل فى هذه الساعة أيضا !

ـــ إنك تحب النظام لحد الإدمان ولكن الحياة تتطلب المرونة أحيانا .

ـــ إنى أعرف واجبى تماما .

ـــ ألا ترى أنها مفاجأة لم أستعد لها ؟

ـــ مفاجأة !، حسبتك تتوقعها فى أى لحظة .

ـــ هموم الحياة تنسى :

ـــ مثلك فى الضغوط ولكننى بفضل الله لا أنسى .

ـــ كل شيء يتغير إلاّك .

ـــ أحمد الله على ذلك .

رد قائلا :

ـــ يا لها من مأساة !

ـــ إنها أطيب فرصة تسنح .

ـــ أتسخر منى ؟

ـــ السخرية لا تتفق مع عملى !، وفضلا عن ذلك فأنا أعرف أنك مقتنع بما نفعل .

مقتنع أو مسلّم به ولكن لا حيلة لى فيه .

ـــ إنه قانون عام احترمته جميع الحكومات على اختلاف منازعها .

ـــ ما شككت فى ذلك قط ولكن ما أكثر الكوارث التى يجئ بها .

ـــ لو لم يكن لتعرضنا لكوارث أشد ، لا تضيع الوقت .

فقال بتسليم :

ـــ دعنى أتلفن لا بنتى معتذرا .

ـــ لا .. آسف .. ضاع وقت كثير .

ـــ دقيقة واحدة .

فهز منكبيه ضجرا وقال :

ـــ ما عليك إلا أن تغير رباط الرقبة .

لما آنس منه ترددا مد يده فحل عقدة رباط رقبته . وأخرج من جيبه رباطا آخر مناسبا ، وفرد ياقة القميص وطوقه به ، ثم راح يعقده برشاقة ومهارة ، وثنى الياقة . ألقى عليه نظرة فاحصة وقال بارتياح :

ـــ غاية فى الأناقة .

تأبط ذراعه ، ومضى به ، ثم أغلق الباب .

وصية سواق تاكسي

لوحت للتاكس بيدى فأقبل نحو موقفى فوق الطوار . جلست إلى جانب السواق وأنا أقول « جريدة الفجر من فضلك » . التفت الرجل إلى باهتمام حرت فى تفسيره . أيكون من الموظفين الذين يواجهون أعباء الحياة الجديدة بعمل إضافى ؟. كلا ، شكله يقطع بأنه ليس موظفا . رجل ضخم كأنه من رافعى الأثقال ، ريان الوجه ، غليظ القسمات ، تطل من عينيه الحادتين نظرة قوية متحدية ، ويده القابضة على المقود تذكر بالسلحفاة حجما وصورة . هيئته مستفزة معدة للمعـارك . وسألنى بصوت خشن متهكم :

ـــ جريدة الفجر ؟

فقلت متجاهلا تهكمه :

ـــ نعم .

فقال باستهانة وقحة :

ـــ طظ !

وقدر ردة الفعل السيئة فى نفسى فاستدرك .

ـــ طظ فى الجريدة لامؤاخذة ، أنت لا شأن لك بالموضوع .

ـــ أى موضوع ؟

ـــ عندكم كاتب اسمه الولد على علام !

فقلت مصححا :

ـــ الأستاذ على علام من أنجح كتاب العامود اليومى .

فدوى صوته وهو يقول :

ــ طظ وطظ !

ــ لماذا ؟

ــ ليتك تبلغه رأيى ، خذ رقم التاكس ، اسمى عتريس الغندور ، وليته يغضب ويجئ لتأديبى فأسوى به الأرض ببصقة واحدة ، وعد علىّ ونذر ألا أمد له يدا أو رجلا ، ببصقة تكفية وزيادة ..

أسفت على عجزى عن الغضب الواجب للفارق غير المحدود بين ضعفى وقوته وقلت :

ــ لا أفهم شيئا ولكنى مقتنع تماما بأنه لا ضرورة لهذا الغضب .

فقال وهو يزداد انفعالاً :

ــ حضرته كتب عامودا عن السواقين الذين لا يشغلّون العداد ثم حرض علينا وزير الداخلية .

فقلت بهدوء :

ــ هذا رأى ، ولعله تلقى شكاوى كثيرة من الأهالى ..

ــ أهالى ؟!، وهل يهمه أمر الأهالى ؟!، لمحته مرة فى سيارة قد المترو ، منتفشا كالديك الرومى ، ماذا يعرف عن همومنا ليشرّع ويحرض، ابن القديمة !

ــ لا .. لا .. من فضلك ..

ثم بنبرة واضحة :

ــ لو عرفته عن قرب لغيرت رأيك فى الحال .

فصاح :

ـــ لو قابلته لشوهت وجهه حتى لتجهله زوجته .

ـــ المسألة بسيطة ، لماذا لا تكتب له بوجهة نظرك ؟

فقال بصوت كالرعد :

ـــ وما قيمته فى الدنيا إذا لم يعرف الحقائق بنفسه ؟. هو صحفى أم سائح غريب ؟، ألم يسمع عن الغلاء ؟، وكيف تحدث رقيعا عن الفول والطعمية وهو لا يهمه إلا الويسكى والسيجار ؟، اللعنة على كتاب درب الأغوات !

ـــ الحق ، والحق يقال ، إنه من أصدق دعاة العدالة الاجتماعية ..

فأصدر صوتا إسكندريا وضحك طويلا ثم قال :

ـــ يا حلاوة .. يا حلاوة .. عدالة تجار العملة والمخدرات !

ـــ عن كل شىء كتب .

ـــ هل كتب عن أبناء « فلان » من أين لهم القصور والملايين ؟

ـــ لا تصدق كل إشاعة .

ـــ إشاعة ؟.. وعلان الذى نشرت الصحف أنه سرق منه خمسون ألفا من الدولارات ؟

ـــ ما أكثر حملاته عن الانحراف والمنحرفين !

ومضى يعد أسماء رجال ونساء ثم قال :

ـــ يا خبر أسود يا هوه .. ينسى كل هؤلاء ويتشطر على عداد التاكسى ..!

وضاق صدرى فقلت أسكت لعله يسكت ولكنه لم يسكت وواصل :

ـــ إذا خاف الكاتب فلا يصح أن يزعم أنه كاتب ..

عدت إلى الكلام مضطرا فقلت :

ـــ توجد حدود .. أنواع من الرقابة الداخلية ..

ـــ والرجولة ؟.. عليه أن يرفض !

فكرت فيما يجب قوله ولكنه سبقنى قائلا :

ـــ ستقول الحياة .. المعيشة .. الأولاد ؟!

ـــ أظن أنها هموم حقيقية ..

ـــ عظيم .. سلمنا .. وإذن فلا يحق له أن يهاجم عداد التاكسى .. ويجب عليه أن يرتدى فستانا وحجابا وحذاء بكعب عال ويقول أنا مرة ..!

الميدان والمقهى

١

الصباح مشرق ، السماء صافية ، الربيع يزفر فيفعم الجو حلاوة . الميدان يستيقظ بدوره الحديثة وآثاره العتيقة ، الدكاكين تفتح أبوابها ، الألبان والفطائر تزهو فى معارضها ، المقاهى تستقبل العاملين والخاملين . جلست مع الشاى الأخضر أراوح بين النظر والتذكر ، مستمتعا بالصحة والأمل وأحلام الشباب . لم يخل المناخ مما يكدر الصفو ، فهذا رجل ذابل العينين من البكاء والسهر ، يسأل عن مكتب الصحة ، وهذه امرأة طاعنة فى السن تتحرى عن أقصر السبل إلى سجن مصر ، ولكنها تذوب فى حوادث كل يوم ، فى الوقت نفسه يتهادى صوت أم كلثوم من الراديو ليسعد صباح السامعين . أحتسى الشاى وأطرب وأنعم بالسمر مطمئنا إلى أن الأكدار عابرة وأن الجمال أبدى لا يذعن لمشيئة الزمن .

٢

انتصف النهار . وجاء الكباب . وراح النادل يرفع الإبريق والأكواب ويعد المائدة للغداء .

وقال صاحبى :

ـــ الزحام اليوم عجيب .

فقلت دون مبالاة :

ـــ الميدان دائما عامر بالخلق .

ـــ ولكنه اليوم خرق المألوف .

وتدخل النادل فى الحديث متشجعا بالمودة القديمة ، قال :

ـــ الناس يتغيرون ، ليسوا كما كانوا ..

قال صاحبى :

ـــ سبحان من له الدوام .

فواصل النادل :

ـــ وتسأل أحدهم عما غيره فينكر ويتهم الآخرين ، صدقنى الدنيا انقلب حالها ..

ـــ أخذنا نتناول طعامنا وأنا أفكر فيما سمعت . وقلت بنبرة مهدئة :

ـــ هكذا الناس فى كل زمان ومكان .

٣

ما بين الظهيرة والعصر كففنا عن السمر وحملقنا بأعين ذاهلة فيما يقع . تساءل صاحبى :

ـــ أهذا زحام كل يوم ؟

فقلت معترفا :

ـــ كلا ، ولا فى المواسم !

الزحام يتكاثف بصورة مذهلة . الأرض تختفى تماما تحت أقدام الرجال والنساء والأطفال الدكاكين مكتظة بالزبائن . الضوضاء ترتفع فى سباق مزعج مع الراديو . أى إقبال على الشراء كأنما يخزنون أو يهاجرون . تيار لا ينقطع من أمواج صاخبة مصطفقة . ويتم كل شىء بسرعة ولهوجة تثيران الريب . ضاعت توسلات الشحاذين فى الهواء . انفجر مولد البيع والشراء والأنات الضائعة بلا نهاية . وتمتم صاحبى :

— يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف .

وضحكنا وكان الضحك منا سفاهة .

٤

ما بين المغيب والعتمة سارع الناس إلى التفرق والاختفاء . وفى الهرج والمرج توترت الأعصاب فنشبت معارك لسانية ويدوية . ومضت الأمواج تنحسر ويعقب المد الشديد جزر أشد فتلاشت الأصوات . خلا الميدان تماما وهو الذى لا يخلو إلا فى الهزيع الأخير من الليل . فكرت فى أن أقوم لأسأل جندى المرور ولكنى رأيته مشدود الأعصاب مكفهر الوجه فآثرت السلامة . وإذا بالدكاكين تغلق أبوابها والبيوت نوافذها فيغلب الظلام ويسود الصمت ، ويتبادل رواد المقهى نظرات حائرة :

— ماذا حصل للدنيا ؟

— ها هى الجرائد ليس بها شىء ..

— ولكن فى الجو شىء ولا شك .

ـــ يجب أن نذهب ، ماذا يبقينا بعد الآن ؟

ـــ ننتظر نشرة الأخبار .

ـــ تجمعّنا خير من عدمه .

ـــ البيوت ؟ .. ومن فى البيوت ؟!

وقام رجل وهو يقول :

ـــ قلبى يحدثنى ..

ولم يتم كلامة وأشار بيده إشارة غامضة ثم ذهب . وشجع ذهابه المترددين فتسللوا واحد فى إثر واحد . وسرت مع صاحبى ونحن من القلق فى نهاية . وقال صاحبى :

ـــ رأسى يدور فبالله حدثنى عما حدث ؟

فقلت بنفاد صبر :

ـــ ما حدث قد حدث ولكن ماذا عما لم يحدث بعد ؟!

المرة القادمة

توثبنا للعمل من قبل أن تطلع الشمس . وتألقت الأعين بالنشاط والحماس والأمل . وقلت بحزم ومحبة معا :

ــ إنه يوم الامتحان ، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان .

وبهمة عالية تناول كل فرد من أسرتنا مكنسته وراح يكنس حجرته بعناية وأمانة . ومماشى الحديقة الصغيرة كنسناها وغسلناها أيضا ، وشذبنا الأشجار فنزعنا منها كل ورقة جافة . وأخذنا المنافض وجعلنا نجلو المقاعد والستائر والأخونة والنوافذ والمصابيح والتحف حتى لمع كل شيء وابتسم . ورششنا الجو بالنفاثات العطرية فانتشرت روائح الورد والبنفسج والقرنفل فى الحجرات.ونظمنا الورد فى الأصص وأعددنا الصوانى والآنية فتجلى البيت كأنه متحف قبل أن ينتصف النهار . وهرعنا إلى المطبخ ليقدم كلٌّ ما يملك من معونة . اختصت ربة البيت بالطهى ولكن بقى لنا مجال فى غسل الخضر وتقشير البطاطس والبصل ونقع اللحوم وصنع السلطات وغسل الفاكهة . فعلنا كل شيء ونحن من السرور فى نهاية . وتناولنا غداء خفيفا فى المطبخ . واسترحنا ساعة بين النوم والاسترخاء . وأقبلنا على الحمام تباعا وفى مقدمتنا الإناث . تطهرنا ولبسنا ثيابنا الجديدة ، ومشطنا شعورنا وتطيبنا ، وصرنا فى أحسن تكوين . وكان جو الربيع نقيا لطيفا فتجمعنا فى الحديقة وفتحنا الباب على مصراعيه وانتظرنا . وربما ساور ربة البيت هاجس قلق فتمضى إلى الداخل لتلقى نظرة ناقدة على الأشياء ولتطمئن إلى كمالها . وأكثر من

صوت قال :

ـــ ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

وعلى سبيل الترشيد قلت :

ـــ عندما تصل السيارة أهرع أنا وأمكم إلى الباب لنكون فى شرف لاستقبال ، أما أنتم فتصطفون فى نظام الجنود وأدب السفراء ، ثم نقدمكم واحدة فواحدة وواحدا فواحدا ، ولينطق كل بما حفظ عن ظهر قلب فى أدب وخشوع وامتثال ..

وقالت الأم :

ـــ سنسير بين يدى سيادته حتى مجلسه فى صدر الثوى ، نظل واقفين حتى يشير إلينا بالجلوس فيتخذ كل مجلسه ، سيلقى أبوكم كلمة موجزة للترحيب ، وإذا وُجِّه إلى أحدكم سؤال فليجب بالحياء الواجب وبالقدر الملائم ، وإن جاد علينا بملحة فالابتسامة أولى بنا من الضحكة ..

وقلت :

ـــ لن أذكركم بآداب المائدة ولا تنسوا ما زودنا به أنفسنا من معلومات إن خطر لسيادته أن يختبرنا !

وقالت الأم :

ـــ وحذار أن تتجاوزوا حدود الأدب إذا شاء أن يتبسط معنا فى السمر أو رأى أن يخص أحدنا بتأنيب أو زجر ..، وعلينا أن نصدع بما يأمر دون تردد أو حذر .

وقلت مشجعا ومذكرا ..

ـــ إنها فرصة العمر فلنسأل الله السلامة والتوفيق .

(الفجر الكاذب)

وجلسنا ننتظر بأعين تتطلع إلى الباب من خلال أشجار الورد . نحلم بما سنفعل أو نقول ونحلم بالنعمة التى سيجود بها القدر . وانتظرنا وانتظرنا وانتظرنا . واشتد الشوق والوجد وتناهى الصبر . وقلنا يا نسائم الربيع احملى إلينا السيد المنتظر . ولكن خطوات الوقت مضت تثقل والزمن يتمطى ويطول والأعصاب يعتريها الألم . وكلما سمعنا أزيز سيارة أو نفخة بوق قمنا نسوى من هندامنا وغبنا حتى الذوبان فى المجهول المتمادى أمامنا.ومن حومة الجزع ارتفع صوت أحد الأبناء متسائلا :

ـــ ألم يحدد ساعة حضوره ؟

فقالت الأم :

ـــ حسبه أنه تفضل بتحديد اليوم .

فغمغم الشاب فيما يشبه الضجر :

ـــ ما أطول اليوم .

وأخذ النور يخف ويتوارى ، والمغيب يرسل ألوانه الهادئة الرزينة المليئة بالشجن . وتطلع نحونا الأبناء فى صمت وتساؤل ، فقلت بثقة :

ـــ إنه لا يخلف الميعاد .

ـــ مع التأخير ستقل فرص السمر .

فقلت وكأننى أوجه الخطاب لنفسى أيضا :

ـــ ما أشقى من لا ينعم بنعمة الصبر .

وانتظرنا . وزحف الليل بجحافله ، وهبط الظلام مشبعا ببرودة . وعند ذاك ارتفع أول احتجاج يجئ من أصغر الأبناء :

ـــ ضاع الوقت وخسرنا مسرات اليوم دون جدوى .

وهتفت به مؤنبا ومداريا ضيقى :

ــ ما أفظع ما تقول .

فقال بعناد :

ــ فى انتظار نعمة كبرى ضيعنا النعمة المتاحة ..

فنهرته أمه :

ــ هذا هو الهذيان ..

ولكن بتوغل الليل وتماديه فتر الحماس وتراجع الأمل ، وغلب الظن بأننا لم نحسن فهم المكالمة التليفونية . و لم ندر ماذا نفعل ولا ماذا نقول . وانسحبت الفتيات بهدوء إلى الداخل وشغلن التليفزيون . وما لبث الأبناء أن غادرونا ، فذهب أولهم إلى النادى ، والثانى إلى المسرح والثالث إلى ملهى فى الهرم . وتبادلت مع الأم نظرة مثقلة بالخجل وخيبة الرجاء .

وآوينا إلى حجرتنا وأنا أقول :

ــ يلزمنا حبة من الحبوب المنومة !

وجمعتنا سفرة الإفطار فى ضحا اليوم التالى . تجنبنا الإشارة إلى مأساة الأمس . ورن جرس التليفون فقامت الأم إليه ، ثم رجعت فى غاية من الانفعال والاضطراب وهى تصيح :

ــ واخجلتاه !

وحدجناها بنظرة متسائلة فقالت بنبرة باكية :

ــ سكرتير السيد ، قال إن سيادته جاء فى ميعاده فوجد البيت نائما فرجع ، أردت أن أشرح له ما حدث ولكنه كان قد أغلق السكة ..

هتفت بصوت كالأنين :

ــ يا للعار !

فقال ابنى :

ــ لا ملامة علينا ، أكان يجب أن ننتظر حتى الصباح ؟!

فرجعت أقول بأسى :

ــ يا للعار !

ــ ولكنا فعلنا الواجب وزيادة .

فقلت وقلبى يتقطع من الحزن :

ــ بل لم نصبر بما فيه الكفاية .

وأخذت الأم تنشج باكية فقلت معزيا :

ــ لا جدوى من البكاء ، ثم إننى ألمس فى اتصاله الجديد بنا توبيخا لا يخلو من العناية .

فتساءلت ابنتى :

ــ هل يمكن أن يقرر الزيارة من جديد ؟

فقلت على سبيل العزاء لهم ولى معا :

ــ كل شىء ممكن ، وليسدد الله خطانا فى المرة القادمة .

دهمتنى قضية من حيث لا أدرى . زوجة أبى تطالبنى بنفقة شرعية . استيقظت من غيابات الزمن وغزانى الماضى بذكرياته . وهتفت بعد أن قرأت عريضة الدعوى «متى أفلست؟... هل سُرقت بدورها ؟! ». وقلت لمحامىّ :

ــ هذه المرأة سرقتنا وحرمتنا من حقنا المشروع .

أفلتت منى رغبة قوية فى رؤيتها . لا بإغراء الشماتة ولكن لأرى ماذا فعل الزمان بها . هى اليوم مثلى فى الأربعين فهل صمد جمالها للأيام ؟، وهل يثبت أمام الفقر ؟. لولا صدق دعواها لما مدت يد السؤال إلى عدو من وكر الأعداء . ولو كانت كاذبة فلم لم تمدها من قبل ؟. شد ما كانت جميلة فتانة . قلت للمحامى :

ــ تزوجها أبى وهو فى منتصف الحلقة السادسة وهى بنت عشرين .

مقاول بناء شبه أمى ، دقة قديمة ، لا يتعامل مع البنوك ، يكنز أرباحه فى خزانة كبيرة بحجرة نومه ، نسعد بذلك طالما أننا أسرة واحدة ، وينفجر نبأ الزواج الجديد بيننا مثل قنبلة . أمى وأخى الأكبر وأنا وأخواتى فى بيوتهن . وينفرد الدور الأعلى بأبى والعروس والخزانة . صعقنا لحداثة سنها وجمالها . وقالت أمى بصوت متهدج باك :

ــ يا للخراب ، سنخرج من المولد بلا حمص .

أخى الأكبر أمىّ ، متخلف العقل ، بلا عمل وإن اعتبر نفسه من الأعيان ، اشتعل غضبا وقال :

ـــ سأدافع عن نفسي حتى الموت !

نصحنا بعض الأقارب باستشارة محام ولكن أبي هدد أمي بالطلاق عند أي مبادرة ، وقال لنا :

ـــ لست غرا ولا أبله ولن يضيع حق .

أنا أقلهم تأثرا بالكارثة . لحداثة سني ولأني الوحيد فى الأسرة الذى رغب فى التعليم حتى التحقت بالهندسة ، ولكن لم تخف عنى معانى الحوادث مثل سن أبى وعروسه الحسناء والثروة المهددة.وعلى سبيل التلطيف أقول :

ـــ إنى مطمئن إلى أبى ..

فيقول أخى :

ـــ إذا سكتنا فسنجد الخزانة خاوية .

أشاركه مخاوفه ، وأتظاهر بغير ما أبطن ، وأشعر طيلة الوقت بأن الواحة التى كانت مطمئنة تعصف بها ريح عاتية وتتجمع فى أفقها سحب سوداء . لاذت أمي بجحر الصمت والخوف وأنذرها الغد بسوء المصير ، أما أخى الأكبر فيقتحم عرين الأسد ، يتوسل إلى أبيه قائلا :

ـــ أنا البكرى ، جاهل كما ترى ولا مورد لى ؛ أعطنى نصيبى ..

فيقول أبى :

ـــ تريد أن ترثنى وأنا حى ؟، عيب أن تشك فىّ ، ولن يضيع حق .

لكن اضطراب أخى لم يسكن ، يلح على أبى كلما لاقاه ، ويقذف بتهديداته من وراء ظهره .

وتقول أمي إنها تخاف على أخى أكثر مما تخاف على الثروة . وأتساءل

هل ينهزم أبى أمام بنت حلوة ؟. ذلك المعلم القادر المحاسب المدقق رغم أميته ؟!. ولكنه يتغير بلا شك وينزلق كل يوم درجة . يختلف إلى الحمام الهندى مرتين فى الشهر ، يهذب لحيته ويحف شاربه كل أسبوع ، يرفل فى ثياب جديدة ، وأخيرا يصبغ شعره . هداياه الثمينة تشى بحسنها حول عنق العروس وفوق صدرها وحول ساعديها . وها هى الشيفروليه والسواق تنتظر أمام بيتنا . ويجن أخى الأكبر ويزداد جنونا . يقول لى :

ـــ من أين جاء بها؟، هل يعز عليها أن تهتدى إلى مفتاح الخزانة وطريقة فتحها ؟، ألا تأخذ منه ما يؤمن حياتها ؟، ألا تستطيع أن تسعده إذا شاءت أو أن تقلب حياته غما ونكدا ؟! ويتطور الجدل بين أخى وأبى فيخرق تقاليد الأدب . يغضب أبى فيبصق على وجهه . فى ثورة متفجرة يتناول أباجورة ويقذف بها أباه فيهرق دمه . ويرى الدم فيفزع ولكنه يتمادى محاولا القضاء عليه.يحول بينهما الطاهى والسواق . يصر أبى على إبلاغ الشرطة فيحمل أخى إلى المحكمة ثم إلى السجن حيث يموت بعد انقضاء عام واحد . وأقول للمحامى :

ـــ كيف وجدت الشجاعة على رفع دعواها ؟

فيقول الرجل :

ـــ للضرورة أحكام .

وفى حومة قلقنا وحدادنا نسمع صوتا مفزعا ينقض علينا من الدور الأعلى. نهرع أنا وأمى دون استئذان لنقف مبهوتين أمام جثة أبى. ونتساءل ونتساءل كالمألوف ولكن أى تساؤل يجدى مع الموت. وتتسرب إلينا الانباء بأنه سقط مشلولا قبل الوفاة بيوم كامل دون أن ندرى. وننتظر

حتى يوارى فى مدفنه وتنتهى طقوس العزاء . وتجتمع الأسرة فينضم إلينا أخواتى وأزواجهن وينضم إليها أبواها ، ويحضر أيضا المحامى . نسأل عن مفتاح الخزانة فتجيب ببساطة إنها لا تدرى عن ذلك شيئا . أحيانا وقاحة الكذب تفوق كل خيال ، ولكن ما الحيلة ؟. ونعثر على المفتاح ، وتبوح الخزانة بسرها الأخير مبدية لنا فى سخرية بالغة عن رزمة لا تتجاوز خمسة آلاف جنيه عدا !. وتهتف الحناجر :

ـــ إذن فأين ثروة الرجل ؟

وتحدق بالجميلة الأعين فتثبت لوقعها بتحد . ونلجأ إلى الشرطة . ويكون تحقيق وتفتيش وكما قالت أمى نخرج من المولد بلا حمص . وتذهب الزوجة الجميلة إلى بيت والديها ويسدل الستار عليها وعلى التركة . وتموت أمى ، وأعمل وأتزوج وأحقق نجاحا مرموقا ، وأتناسى الماضى حتى ترجعنى إليه القضية . وأقول للمحامى :

ـــ قمة السخرية حقا أن تفرض علىّ نفقة لتلك المرأة .

فجاءنى صوته من بين الأضابير فوق مكتبه قائلا :

ـــ القصة القديمة تصلح فى الظاهر منطلقا للعرض ولكن ما جدوى نبشها ونحن لا نملك دليلا عليها ؟

فقلت بحماس :

ـــ القضية القديمة غير معروضة للبحث ولكنها مدخل طيب له تأثيره الذى لا يستهان به .

ـــ بالعكس ، سنهيئ لمحامى المرأة فرصة للهجوم واستدرار العطف .

ـــ العطف ؟!

ـــ حلمك ، فكر معى بشىء من الحياد ، عجوز يكنز ثروته فى خزانة بحجرة نومه ، يشترى صبية جميلة فى العشرين وهو ابن خمسة وخمسين ، يحدث لأسرته كيت وكيت ، ويحدث لزوجه الجميلة كيت وكيت ، عظيم ، من يكون الجانى ؟!

صمت مقطبا مغتما فواصل :

ـــ لنمض فى سبيل آخر ، فأنت رجل منتج وذو أسرة وتكاليف الحياة أبهظ من أن يحتملها إنسان إلخ إلخ ، وحسبنا أن تقرر نفقة معقولة .

ورحت أتمتم :

ـــ يا للخسارة .. سرقتنا وموت أخى وحسرة أمى !

ـــ آسف.. إنها ضحية مثلكم ، حتى الثروة التى نهبتها دفعت بها إلى كارثة ، وها هى تتسول .

فقلت مدفوعا بحب استطلاع طارئ :

ـــ كأنك تعرف عنها أشياء ؟

هز رأسه فى غموض دبلوماسى وقال :

ـــ امرأة عقيم ، تزوجت وطلقت مرات وهى فى عنفوان جمالها ، وفى كهولتها وقعت فى غرام طالب ، نهبها بدوره ثم ذهب !

لم يفصح عن مصادر معلوماته ولكنى حدست منطق الحوادث المتتابعة ، وداخلنى ارتياح منعنى الحياء من إعلانه . وفى يوم الجلسة عاودنى الشوق الغامض لرؤيتها . عرفتها وهى منتظرة أمام غرفة المحامين . عرفتها بالحدس قبل الحواس . فالجمال الذى نهب ثروتنا وأتعسنا تلاشى تماما . تبدت مفرطة فى البدانة لدرجة غير مقبولة ،

وغاض من صفحة وجهها ماء السحر ، والبقية الباقية من جمالها تراءت بلا روح ، وحجبتها عن الناظرين مسحة من الكآبة الدائمة . ودون روية مضيت نحوها ثم أحنيت رأسى تحية وقلت :

ـ تذكرتك فلعلك تذكرينني !

رمقتنى بدهشة لأول وهلة ، ثم بارتباك ، وردت التحية برأسها المحجوب ، وقالت كمن يعتذر :

ـ آسفة لإزعاجك ، ولكنى مضطرة !

ونسيت ما أردت قوله ، بل أرتج على الكلام ، وحـلّ سلام ، فقلت :

ـ لا بأس عليك ، وليفعل الله ما يشاء .

وابتعدت عنها فى هدوء وأنا أقول لنفسى :

ـ لم لا ؟.. حتى المهزلة يجب أن تتم فصولا ..

ذقن الباشا

متى فتح هذا المقهى ؟. علم ذلك عند الله . لم يخطر لى أن أطرح هذا السؤال فى الزمن القديم . فى صباى كنت أعبر الطريق أمامه كثيرا فى الذهاب والجيئة كأكثر أبناء العباسية . وكانت تشع منه إلى صدورنا هيبة وإجلال ، فنمضى إذا مضينا ناحيته بسرعة وأدب متحاشين النظر إليه حيث يجلس الآباء ونخبة من مدرسى مدرستنا بكل ما يحملون بين جوانحهم من وقار ورهبة . وهو صغير إذا قيس إلى مقاهى وسط البلد أو حتى مقاهى السكاكينى. مستطيل الشكل، أنيق المنظر، تقوم فى عمقه المنصة الرخامية والموقد، ويعلوها رف أول تصطف فوقه برطمانات البن والشاى والسكر والقرفة والزنجبيل والكراوية والأنيسون، ورف ثان تتجاور فوقه النراجيل البيضاء الشفافة والكحلى الزاهية. أرضه مدكوكة بالبلاط المعصرانى وجدرانه وسقفه زرقاء صافية، وفى منتصف الجدارين المتقابلين تلتصق بالغراء والمسامير المذهبة مرآتان مستديرتان مصقولتان مؤطرتان بالأبنوس. وثمة طابوران من الموائد الرخامية المتواجهة على الجانبين ولوازمها من الكراسى الخيرزان، أما الطوار أمام المقهى فمزروع ببلاط صغير ملون، ويمتد فوقه صفان متوازيان من الموائد فى مركز الوسط منها تنطلق شجرة لبخ فارغة تتهدل فوقها أغصانها حانية، وبها شهر المقهى باسم «دقن الباشا» على حين أن لافتته تحمل اسم صاحبه «سيد كنج»، ولا أحد يعرف أصل لقبه، ولكن الجميع يسلمون بسطوته على الأحياء الشعبية المجاورة، وبالرغم من عبيره البلدى، ومن أن النُّدُل

العاملين به يسعون فى الجلابيب حفاة الأقدام إلا أنه امتاز بالنظافة المطلقة فى أرضه وجدرانه وأدواته كما عرف بجودة مشروباته . إنه مجمع أهل الوقار من الآباء والمدرسين ، وفى مواسم الانتخابات يهرع إليه المرشحون من الباشوات يخطبون ود صاحبه المهيمن على الناخبين فى الحوارى والأزقة . ودائما يسبح فى هدوء فالحديث يتجاذب فى تؤدة والضحكة تند بحساب والحوار السياسى يمضى فى وفاق وانسجام وصورة سعد زغلول تطل على الجميع من موضعها فوق النراجيل وهو منتصب القامة فى بدلة التشريفة المحلاة بالقصب .

* * *

وتغير سكان المقهى ، بصورة غير ملموسة أول الأمر ، ثم وضحت المعالم قبيل الحرب العالمية الثانية وفيما تلا ذلك من أيام . رحل الآباء والمدرسون أو لم يبق منهم إلا نفر من المعمرين . واكتسبنا مع تقدم العمر والتوظف الحق فى اقتحام أجمل مقهى فى حينا . جلسنا مكان الآباء وشربنا القهوة والشاى ودخنا النارجيلة وخضنا فى أحاديث السياسة والحب والجنس بأصوات مرتفعة تترامى أحيانا إلى الطريق . ولم نعد نحفل من المعمرين من أساتذتنا فأقبلنا عليهم نصافح ونتوادد ونتبادل الذكريات ، وربما مازج حوارنا المزاح ، بل منهم من شاركنا لعب النرد ، ولكن حظى كل واحد منهم بحقه الكامل فى الاحترام . وهلت علينا مشكلات جديدة فتنوعت أحاديثنا بين الدستور والغلاء واليمين واليسار والملك والوفد والإنجليز والجلاء وفلسطين واليهود . ولم يوقف ذلك مسيرة الحياة الطبيعية فعشق منا من عشق وتزوج من تزوج وأنجب من أنجب ، واستفحل التشكى وانفجر النقد .

ولم يسلم من ألسنتنا رجل أو امرأة أو حزب وحتى النُّدُل الحفاة شاركوا فى الكلام بعد أن خفت رقابة سيد كنج لطعونه فى السن وتوغله فى الضعف وزهده فى الانشغال بالحياة اليومية . وجاء وقت فبدا أن كلاً منا قد أصبح حزبا قائما بذاته له أهدافه ووسائله ، وتسلل الشيب إلى الرءوس ، ورحل آخر المدرسين المعمرين ، وتوترت أعصابنا يوم توفى سيد كنج واحتل مكانه فى الإدارة ابنه الأكبر الشافعى . من جيلنا كان ، فأسدينا إليه النصيحة أن يحافظ على سمعة المقهى ، وأن يعنى عناية خاصة بالنظافة وجودة الأصناف وألا يتهاون فى سمعته طمعا فى مضاعفة أرباحه كما يفعل قصار النظر . ووعد الرجل ، وأنجز ما وعد بصفة عامة فلم يطرأ على المقهى إلا تغير طفيف يمكن التسامح معه كما اعتدنا أن نتسامح مع كل مكروه يجد .

* * *

وزحف الجيش بثورته ، فانطوت صفحة وانبثقت صفحة جديدة . وتفجرت ينابيع الأمل وتضاربت الخواطر . وباتت جماعتنا ركن المقهى الركين وقاعدته الثابتة . وكالمنتظر تسلل إلى الأركان شباب صاعد ، واشتبكت حباله بحبالنا بحكم الجوار والعشرة . ومع تتابع الأمجاد اعترضت أزمات كما عودنا التاريخ ، وحملقت أعين الأمن تطارد الخوارج ، ونادى أهل الحكمة بيننا حذارِ من السياسة وحديثها يا محبى السلام والسلامة . وعقدنا العزم على ذلك ولكن اجتاحنا الإغراء وألح علينا كحكة الجرب . وقبض على نفر منا لتهور التعبير ونزقه ، فتعلمنا التفاهم بالهمس والإشارة والرمز ونحن نستعيذ بالله من المهالك . وكلما

بدا وجه غريب رمقناه بحذر ، وإذا طرح شاب سؤالا محرجا تساءلنا ترى ماذا وراءه ؟. وحدثونا عن أجهزة التسجيل التى تلتقط الخواطر من بعيد ، حتى اقترح البعض أن نقبع فى دورنا آمنين . وعجزنا عن تنفيذ ذلك ، وقلنا إنه لا غنى لنا عن سلوى اللقاء ، وأن الأمان متاح لمن يصون لسانه . وكدر صفونا الشباب الصاعد بتعاليه علينا ، وتجاهله لماضينا ، وازدرائه لأمجادنا . نحن لا ننكر المعجزات التى تقع ، ولا الانتصارات التى تتحقق، ولا انطلاق الأيدى القوية لتحرير الشرق والغرب ، ولكن ما الداعى إلى إنكار أمجاد سلفت وانتصارات سبقت ؟!. وتجنبنا مع ذلك الخصام ، وتراجعنا عن العناد ، واستبشرنا خيرا بالغد وما بعده . وكنا إذا تحدانا سؤال مستفز مثل « من يكون سعد زغلول ؟ » أجبنا بكل تواضع « كان محاميا ناجحا » ، أو « من يكون مصطفى النحاس ؟ » قلنا بمنتهى اللطف « كان تاجر منى فاتورة بالغورية ». قلنا لا داعى لتكدير الصفو بالجدل العقيم ، ولنترك للتاريخ ما ينفرد بتصحيحه عندما يشاء ، ولنشارك فى الفرحة الشاملة بكل بناء يقوم أو عدالة ترسخ .

* * *

ودهمنا ونحن فى غفلة يوم ٥ يونية الأسود . تطايرت آمالنا أشلاء وشظايا ثم سقطت فى أعماق بئر من رماد عفن تحول سكان المقهى إلى أشباح تهيم فى وادى الظلام مهمهمة فى هذيان متواصل . الحزن شامل ، الحزن باك . الحزن ساخر . لم يخل حزننا من تمرد أما حزن الأصدقاء الجدد فتلقفته دوامة الضياع . قالوا لنا بنبرة جديدة « حدثونا عن دنيا كم كيف كانت » . ليكن ، فالحديث هو السلوى المتاحة ، ولكن مـا

جدواه ؟. وسألونا أيضا « ما حكمة خلق الإنسان فى هذا الوجود » وتراكمت الإجابات مثل تل من الهواء . واستمر الحديث واستمر الزمن . تراجعنا إلى ركن الشيوخ وانبسطوا فى كل مكان . وحدثت أمور . وواصلت الحياة العطاء والموت الإفناء . وارتفع شعار الانفتاح ، فريق هاجر بلا أسف ، وفريق ارتفع تحوطه الريب ، وفريق عوى عواء الذئاب . لم نكن نفرح بالنصر إلا يوما أو بعض يوم ، ولا بالسلام إلا ساعة أو بعض ساعة . وانصبت الأحاديث على الخيار والطماطم والرغيف ، وزاغ البصر بين الغيم الداكن والبرق الخاطف اللامع .

* * *

وذات مساء قال لنا الشافعي صاحب المقهى :

ـــ آسف يا حضرات ، تم الاتفاق على بيع المقهى !

لم نصدق أول الأمر ، حتى تأكد لدينا أنه سيقوم مقامه سوبر ماركت . يا ألطاف الله ! إنه خبر كطعنة خنجر . مقهى العمر والذكريات والآباء . المقهى الذى داعب صبانا وآوى شبابنا وكهولتنا ، وشهد حبنا وزواجنا وإنجابنا وهزيمتنا ونصرنا . وتساءلنا أين نتلاقى كل مساء ؟. قال أحدنا :

ـــ أقرب مقهى إلى حينا مقهى الانشراح فى أول الظاهر .

قال آخر :

ـــ لكنه مقهى الحرفيين ، غاية فى الفقر والقذارة .

فقال الأول :

— اصح ، حقا ما زال مقهى الحرفيين ولكنهم يذهبون إليه اليوم فى سياراتهم الخصوصية الملاكى ، وقد تجدد المقهى بتجددهم فأصبح انشراحا بالمعنى الصحيح ..

ثم وهو يضحك :

— سنمثل فيه الطبقة الكادحة الجديدة !

عندما يقول البلبل : لا

تطاير فى جو المدرسة نبأ هام بأن الناظر الجديد حضر . تلقت النبأ فى غرفة المدرسات وهى تلقى نظرة أخيرة على دروس اليوم . لا مفر من أن تهنئه مع المدرسات ، وأن تصافحه أيضا . سرت فى بدنها قشعريرة ولكن لا مفر . قالت زميلة :

ـ ينوهون بكفاءته ، ويتحدثون أيضا عن صرامته .

كان دائما احتمالا متوقعا وها هو قد وقع . شحب وجهها الأنيق ولاحت فى عينيها السوداوين النجلاوين نظرة شاردة . وأزقت الساعة فذهبن طابورا فى أرديتهن المحتشمة إلى حجرته المفتوحة . وقف وراء المكتب يستقبل الوافدات والوافدين . متوسط القامة ، مائل إلى البدانة ، ذو وجه كروى وأنف أقنى وعينين جاحظتين ، يتقدمه شارب غليظ منتفخ مقوس كموجة محملة بالزبد . تقدمت فى خطى خفيفة مركزة عينيها على صدره متحاشية عينيه ثم مدت يدها . ماذا تقول ؟. مثلما قلن ؟. لكنها خرست فلم تنبس بكلمة . ترى ماذا تجلى فى عينيه ؟. صافح يدها الرقيقة بيدة الغليظة وقال بصوته الخشن :

ـ شكرا ..

استدارت ومضت بقامتها الرشيقة . نسيت همومها فى أداء واجبها اليومى ولكنها لم تبد فى حال حسنة . أكثر من بنت قالت « أبلة عصبية اليوم ». ولما رجعت إلى مسكنها بأول شارع الهرم غيرت ملابسها وجلست إلى مائدة الطعام مع أمها . نظرت الأم إلى وجهها وتساءلت :

ــ خير ؟

قالت بإيجاز :

ــ بدران ، بدران بدوى ، تذكرينه ؟ عين ناظرا على مدرستنا .

ــ ياه !

ثم بعد قليل من الصمت :

ــ لا أهمية لذلك على الإطلاق ، تاريخ قديم منسى ..

بعد الطعام آوت إلى حجرة مكتبها لتستريح وقتا ثم لتصحح مجموعة من الكراسات . نسيته تماما . كلا لم تنسه . يطوف بها بين زمن وآخر . كيف يمكن أن ينسى تماما ؟!. عندما جاء لأول مرة ليعطيها درسا خصوصيا فى الرياضة كانت فى الرابعة عشرة . بل لم تكن أتمتها . كان يكبرها بخمسة وعشرين عاما وفى سن المرحوم أبيها . قالت لأمها « شكله فوضى ولكن شرحه جيد » فقالت أمها « لا شأن لنا بشكله ، المهم شرحه ». كان غاية فى المهارة . يبعث النشاط برواية النوادر اللطيفة . أنست به واستفادت من خبرته . ولكن كيف حصل ماحصل ؟. لم تفطن فى ملكوت براءتها إلى أى تغير فى سلوكه لتأخذ حذرها . انفرد بها ذات يوم عندما ذهب والداها لعيادة عمتها . لم يداخلها شك فى رجل اعتبرته أبا ثانيا . كيف حصل ما حصل ؟. بلا حب ولا رغبة من ناحيتها حصل ما حصل . تساءلت فى رعب ما هذا ؟. قال لها « لا تخافى ولا تحزنى ، احتفظى بسرك ، وسوف أخطبك يوم تبلغين السن المعقولة ». ووفى بوعده . جاء وخطب . كانت بلغت درجة من النضج أتاحت لها إدراكا لأبعاد مأساتها . لم تجد نحوه أى حب

أو احترام وكان أبعد ما يكون عن أحلامها وما تخلقت به من نقاء ومثالية . ولكن ما الحيلة ؟!. أبوها رحل عن دنياها قبل ذلك بعامين ، وذهلت أمها لجرأة ذلك الرجل ، ولكنها قالت لها :

ــ أنا عارفة تمسكك باستقلالك الشخصى ولذلك أترك لك الرأى ..

شعرت بحرج مركزها . فإما أن تقبل وإما أن يغلق الباب إلى الأبد . ياله من موقف يدفع الإنسان دفعا إلى ما يكره . هى الجميلة الغنية التى يضرب المثل بنبل أخلاقها فى العباسية كلها . تتخبط فى مصيدة محكمة وهو يطل عليها بعينيه الشرهتين . كرهت قوته كما كرهت ضعفها . أن يعبث ببراءتها شىء أما أن يتسلط عليها وهى فى كامل عقلها فشىء آخر . قال لها :

ــ ها أنا أوفى بوعدى لأنى أحبك .

وقال لها أيضا :

ــ إنى أعرف حبك للتعليم وسوف تكملين دراستك بكلية العلوم .

غضبت غضبا لم تشعر بمثله من قبل . رفضت الإرغام كما رفضت القبح . هان عليها أن تضحى بالزواج . رحبت بالوحدة . وقالت إن الوحدة فى رفقة الكبرياء ليست وحدة . وحدست أيضا أنه يطمع فى مالها . وقالت لأمها بكل بساطة :

ــ لا .

فقالت الأم :

ــ إنى أعجب كيف لم تقررى ذلك من أول لحظة !

واعترض الرجل طريقها فى الخارج وقال لها :

ــ كيف ترفضين ؟.. ألا تدركين المصير ؟

فقالت له بحدة لم يتوقعها :

ــ أى مصير أحب إلىّ من الزواج منك !

وأتمت دراستها . وأرادت أن تملأ الفراغ بالعمل فاشتغلت مدرسة . وواتتها فرص الزواج تباعا فأعرضت عنها جميعا ، حتى سألتها أمها :

ــ ألا يعجبك أحد ؟

فقالت برقة :

ــ إنى أعرف ما أفعل .

ــ ولكن الزمن يجرى ؟

ــ فليجر الزمن كيف شاء ، أنا راضية ..

ويتقدم بها العمر يوما بعد يوم . تتجنب الحب وتخافه . تأمل بكل قواها أن تمضى الحياة فى هدوء . مطمئنة أكثر منها سعيدة . تلح على إقناع نفسها بأن السعادة لا تنحصر فى الحب والأمومة . ولم تندم قط على قرارها الصلب . ومن يدرى ماذا يخبىء الغد ؟. حقا إنها تأسف لظهوره فى حياتها من جديد . وأنها ستتعامل معه يوما بعد يوم . وأنه سيجعل من الماضى حاضرا حيا أليما . وعندما خلا إليها فى حجرته لأول مرة ، سألها :

ــ كيف حالك ؟

أجابت ببرود :

ـــ على خير ما يكون .

فتردد قليلا ثم سأل :

ـــ ألم .. أعنى .. تزوجت ؟

فقالت بنبرة من يقصد قطع هذا الحديث :

ـــ قلت إننى على خير ما يكون .

العجوز والأرض

لفت نظرى منظر جديد فى أثناء مسيرتى اليومية على شاطئ النيل بشارع الجبلاية . الساعة السابعة صباحا ، أوائل الربيع ، الطريق تكاد تخلو تماما من أى عابر ، رأيت على سفح المنحدر نحو النهر رجلا وامرأة . الرجل عجوز يقارب الثمانين ، طويل القامة مع احديداب خفيف ، أبيض الشعر خفيفه ، عتيق القسمات ، يرتدى بدلة متهدلة من التيل السنجابى ، والمرأة فوق الستين ، امّحت من صفحة وجهها أمارات الأنوثة وحل الجفاف والخشونة . على الأرض بينهما انطرحت خيمة مطوية وتناثرت حلل نحاسية وآنية شاى وموقد غاز . خطر لى أنهما جاءا يمضيان يوما على شاطئ النيل تسلية عن الوحدة والكبر ، فأشفقت على صفوهما من حصا المنحدر والقاذورات المتراكمة فوق أديمه . فى اليوم التالى أدهشنى أن أرى الاثنين بنفس موضع الأمس . وضاعف من دهشتى أن أراهما منهمكين فى رفع الحصا وكنس القاذورات على مدى مسافة غير قصيرة من الشاطئ . ترى ما شأنهما ؟ هل يبغيان إقامة طويلة ؟، وتمهلت فى السير ممعنا النظر . انتبها إلىّ فتطلعا نحوى بأعين متوجسة مرتابة ، فلم أر بدا من الإسراع فى الخطو دفعا للحرج . هل داخلهما شك فى نيتى !، هل حسبا أننى أراقبهما من موقع مسئوليتى عن الشاطئ ؟. شعرت نحوهما بالعطف والرثاء وتمنيت على الله ألا يخيب لهما رجاء . فى صباح اليوم الثالث رأيت الأرض قد خططت فأصبحت أحواضا متتابعة على هيئة مستطيلات ، على حين ركب أسفل المنحدر

شادوف لرفع المياه ، وغير بعيد جلس الزوجان يحتسيان الشاى . ولما رأيانى مقبلا رفعا رأسيهما نحوى فى قلق فاق قلق الأمس . مررت مسرعا مشفقا متحاشيا التقاء الأعين . إنه الخوف عليه اللعنة . يطاردهما فى مهجرهما الجديد ولا شك . وثمة سبب يمكن تخمينه رغم جهلى بتلك الأمور . إنهما يسيئان الظن بمسيرتى الصباحية ويتوهمان أنها تدور من أجل مراقبتهما . كيف أعفيهما من جرعة النكد اليومية التى أصبحتهما بها ؟. لا غناء لى عن الطريق ولكن بوسعى أن اتجاهلهما أو أشعرهما بذلك . ويوما بعد يوم أرى — بلحظ العين — المياة وهى تغمر الحقل ، والخيمة وهى تنتصب فى رشاقة . ويوما بعد يوم تغير وجه الأرض فآذن بمولد حياة جديدة . ويوما بعد يوم ذرت القرون الخضراء كالأغاريد الخفيفة مبشرة بالبهجة المشرقة . تمنيت لو كان فى قدرتهما أن ينشرا العمران فى الشاطئ كله ويريحا البصر من سوء مطلعه . ولم يكدر صفوى إلا إصرارهما على التوجس والحذر . حتى قررت يوما أن أحيى وأبتسم . وما كدت أفعل حتى لوح لى العجوز بيده ، وصعد نحوى حتى وقف أمامى ، ثم سألنى :

— حضرتك موظف ؟

فأجبت بالإيجاب فعاد يسأل :

— فى المحافظة ؟

فقلت بوضوح :

— كلا ، لا علاقة لى بالمحافظة ولا الداخلية ولا ما شاكل ذلك ..

فصمت حائرا فقلت ضاحكا :

ـــ لماذا تنظر إلى فى ارتباب كأنى عدو ؟

فقال بنبرة اعترافية !

ـــ أنا رجل عجوز على المعاش ، كنت موظفا بالزراعة ، أخلت الشرطة بيتنا الآيل للسقوط ، فكرت فى سكنى الشاطئ بـدلا مـن المقابر !

ـــ فكرة جميلة .

ـــ المعاش قليل ، قلت أزرع لآكل لا لأتاجر . بعنا العفش القديم واشترينا ما يلزمنا كالخيمة والشادوف ..

ـــ فعلت خير ..

فتردد قليلا ثم قال :

ـــ أعتقد أن هذا لا يسيء إلى أحد ؟

ـــ حسبك أنك جمّلت رقعة من الشاطئ القذر .

ـــ ولكنى أخاف التعليمات والإجراءات .

فقلت بصدق :

ـــ الحق إنه لا دراية لى بذلك .

وتمنيت له الخير ثم صافحته وذهبت . ولما هل الصيف قمت بإجازتى السنوية . وعدت من المصيف بعد شهر ونصف شهر لأواصل حياتى المألوفة . واستأنفت مسيرتى الصباحية ، ولما اقتربت من شارع الجبلاية تذكرت ـــ ربما لأول مرة ـــ الرجل والمرأة . أقبلت نحو موضعهما تواقا للاستطلاع . ولكنى لم أجد أثرا لهما ولا للحقل . رجع المنحدر إلى حاله القديمة من الخراب والقذارة . لا تفسير لذلك إلا أن مخاوف العجوز

قد وقعت وتحققت . فاض قلبى بالأسى وأنا أتساءل عن مصير العجوزين . ورأيت جندى المرور على مبعدة يسيرة من المكان ، فقصدته وتبادلنا التحية كعادتنا منذ سنوات . قلت له :

ـــ كان هناك رجل وامرأة يزرعان الأرض ..

فضحك الرجل قائلا :

ـــ لم يدم الحال وسبحان من له الدوام ، جاء شرطى ذات يوم للتحقيق ، وقاد الرجل إلى القسم لعمل محضر مخالفة .

صمت مغتما متفكرا فقال الجندى :

ـــ أرض الحكومة ليست لكل من هب ودب ، وجاء عمال فاقتلعوا الزرع قبل أن ينضج ، ولا علم لى بما حصل للرجل بعد ذلك .

انقبض صدرى حزنا على آدم وحواء وحقلهما ، وصحبتنى ذكراهما زمنا حتى تلاشت فى خضم الحياة اليومية .

مضى اليوم على ذاك التاريخ أكثر من عشرين عاما . أذكره أحيانا عند مرورى بالموضع إياه .

أذكر الرجل والمرأة والحقل الأخضر الذى عصفت به التعليمات المقدسة .

فوق السحاب

أكابد الواقع ، وهو يعاندنى ، يستوى فى ذلك يومه وغده . لم أنل من عطايا الدهر إلا تكوين أسرة وإنجاب ذرية ، وفى ذات الوقت عجزت عن إسعادها وبالتالى عن إسعاد نفسى . ولولا التطابق الفريد بين سوء حالى وسوء حال البلد ما فكرت فى البلد ، ولكننى وجدت أسرتى تعكس صورة البلد والبلد تعكس صورة أسرتى . كلتاهما تعانى من كثرة العدد وقلة الموارد واختلال التوازن بين الدخل والمنصرف وتكاثر الديون وتجهم المستقبل غير أننى لم أخف عن ذوى حقيقة وضعنا و لم أعد بشىء يفوق قدرتى . ولعجزى عن تحسين حالتى فضلا عن عجزى عن تحسين البلد غشيتنى الكآبة وبادرنى الشيب قبل الأوان . و لم أجد ما أروح به عن نفسى فى خلوتى إلا الحلم ، هو الذى شق لى طريقا جديدة ، ويسر لى رزقا وافرا ، وهيأ لى صحة وعافية وعلاقات إنسانية حميمة ، و رفعنى إلى عالم جديد ، وحقيقة سامية ، وعدل شامل ، وتطلع باهر إلى عالم الغيب . وفى أتون المعركة بين الحقيقة والخيال طال ليل الشقاء وامتد ، وانكمشت تحت الغطاء بكل جوارحى المرتعدة ، فقلقت زوجى واقترحت أكثر من وصفة للعلاج ولكنى تمنيت النوم باعتباره المنقذ من الاضطراب والألم . و لم أنم و لم تهدأ الثائرة وأصابتنى فى الأعماق ضربة رادعة ، مفاجأة وأى مفاجأة . وارتفعت فى جو الغرفة كأنى طير يطير فى هدوء ووقار ، ولبثت معلقا بسقفها ، غير غائب عن خاطرى ما خبرته من معلومات عن الهذيان والحمى . وأنظر فأرى جسدى مطروحا

على الفراش والجميع يتطلعون إليه من خلال دموع منهمرة . هى الحمى ولا شك . وكل ما تموج به الغرفة من حركات وأصوات تبدو لى خالية من أى معنى . دعوتهم إلى التزام الهدوء والصمت فلم يسمعوا . راقبتهم فى سكينة كاملة ، ومضى اهتمامى بما حل بهم يضعف ويتلاشى رويدا رويدا ، ومنظرهم يغوص فى العمق ويتضاءل حتى اختفى تماما . وامتد أمامى ممر طويل بجوف غائم الأرض والجدران يلوح فى طرفه القصى نور رائق . أتقدم فيه بخطوات ثقيلة متعثرة ، ومترنحا أحيانا ، وبقلب يفتقد الأمان . وفى مستقر النور يلوح لى وجها أبى وأمى ، يرمقاننى بحنان ، فأهرع نحوهما متخففا من مخاوفى . ثم أذكر حاجز الموت الذى يفصلهما عنى فأتوقف فى حذر ، وأهمس كالمعتذر :

ـــ لعلى أحلم !

فيجئ صوتاهما معا كأنهما صوت واحد :

ـــ بل تستيقظ .

ويقبلان نحوى فى ثوبين من السحاب ، ويتأبط كل منهما ذراعا ، ويقولان :

ـــ انتبه ، أصبحت معنا بلا فاصل .

وقلت لنفسى إن الحلم لا يكون بهذا الوضوح ، وهمست :

ـــ نعم ، إنى منتبه تماما ..

ـــ هذا حسن .

ـــ ولكنى أشعر فى داخلى بكابوس ثقيل .

ـــ سينقشع عندما تبرأ من أخطائك .

قلت برجاء :

ـــ سوف تساعداننى ..

فقالا معا :

ـــ بل تنتهى مهمتنا هنا ، اعتمد على نفسك .

وتلاشيا فى لحظة خاطفة ، وسرعان ما وجدتنى فى عالمى الجديد . عالم جديد حقا لا أملك أسماء لمفرداته . مكان وليس بمكان ، ضوء وليس بضوء ، ألوان وليست بألوان ، أشجار وليست بأشجار ، بيوت وليست ببيوت . أرضه وسماؤه مغطاة بالسحب ، مترام بلا حدود ، بيوته من السحب أيضا ممتدة فى صفوف متوازية تفصل بينها مسافات شاسعة ، أشجاره هائلة ، ألوانها جديدة تماما وذات تأثير عميق فى الحواس . ويغمره ضوء ثابت هادىء جديد أيضا فلا هو شفق ولا هو غسق . لأول وهلة خيل إلى أننى وحيد فى وجود لا متناه . ولكن الوحشة لم تثقل على طويلا و لم تدم . فهذا الوجود المحيط بى ينتفض بحياة غامضة . إنه حى وعاقل أيضا ويرنو إلىّ باهتمام وكأنما يتساءل عما سأفعل . وفى البيوت أحياء منشغلة بشئونها ، تترامى إلى أذنى الباطنة تسبيحاتها . هل أطرق بابا لأسترشد بمن فى الداخل ؟. ولكن إذا كان والداى قد تخليا عنى فكيف بالغرباء ؟!. لم يبق لى سوى أن أعتمد على نفسى ، ولكن كيف أبدأ وأين أتجه ؟!. ويقبل على شخص جليل يرفل فى ثوبه السحابى ، ويطالعنى بوجه آية فى الإشراق والجاذبية . وبنظرة من عينيه أمرنى أن أتبعه حتى وقف أمام بيت وهو يقول :

ـــ بيتك .

نظرت إلى بيتى بحب استطلاع فقال :

ــ انتظر ، لن تدخل حتى تستحم .

فأشرت إلى قلبى قائلا :

ــ ثمة كابوس يجثم فوق صدرى .

ــ من أجل ذلك يجب أن تستحم أولا .

واندلعت فكرة فى نفسى فقلت :

ــ أعتقد أن أمامى عملا متواصلا ..

ــ الطريق طويل ، ومنازله كثيرة ، وغايته ليس كمثلها شيء .

ــ هل ترشدنى ولو إلى الخطوة الأولى ؟

ــ اعتمد على نفسك أولا وأخيرا ..

وأخذ بيدى فقادنى إلى بحيرة من نور فى خميلة وأمرنى بإسلام نفسى إلى أمواج أنوارها . وصدعت بالأمر ، فطفوت ثوانى ، ومضيت أغوص على مهل ودون توقف حتى استقررت فى أعماقها . وتسربت الأمواج إلى باطنى فاجتاحته .. وانبسطت أمام ناظرى سلسلة الهفوات والأخطاء التى كابدتها فى حياتى الأولى . وكلما تطهرت من هفوة أو خطأ تلاشت مصحوبة بآلام متفاوتة ، ويخف وزنى بمقدار فأرتفع عن مستقرى قليلا قليلا . وتواصل الاستحمام ساعات أو أياما أو أعواما حتى طفوت فوق سطح البحيرة . وانتقلت إلى الأرض فى خفة وانشراح ، ودخلت بيتى ، وارتديت ثوبى من السحاب الرائق . وقررت ألا أضيع وقتا بلا عمل ، وفكرت وتأملت طويلا ، ثم عزمت أخيرا على أن أبدا بالهندسة لحاجة المسافر إلى إتقان الملاحة ورسم الخرط .

وانهمكت فى العمل بعزيمة لا تعرف اللين أو التردد . وساعدنى على ذلك جمال الجو وثباته ، فهو معتدل دائما ، لا يطرأ عليه ليل أو نهار ، ولا تغيره الفصول . ولا تضعف المشاكل من قوة العزائم ، ولا يعترينا الضجر أو اليأس . ومن صميم ذاتى ودون أى مساعدة من الخارج تراءى لى الطريق بطوله ومنازله فاطمأن قلبى إلى اختيارى الهندسة كمنطلق للعمل ، وازداد شوقى إلى الغاية البعيدة التى راودت أحلامى الأرضية نفسها . غير أن طارقا طرق بابى فقطع على العمل . دهشت حقا وأذنت له بالدخول ، وإذا بها — هى هى — مقبلة نحوى بجمالها القديم وسحرها النضير فى ثوبها السحابى الجديد — ما تمالكت أن فتحت ذراعى فتلقيتها على صدرى بحنان وشوق ، وأنا أقول :

— ما كنت أتصور أننا سنجتمع مرة أخرى !

فقالت بصوتها العذب :

— وما أتصور أن نفترق بعد الآن .

فقلت بحماس :

— معا .. معا .. حتى منزل السجود .

ونظرت إلى عملى ثم تساءلت :

— بم تبدأ ؟

— بالهندسة !

قالت بقلق :

— بدأت بالشعر .

وتبادلنا نظرة مترقبة . وهمستُ بأسى :

ــ لا نستطيع أن نمضى معا .

فتساءلت بحزن :

ــ هل نفترق باختيارنا بعد ما ذقنا من مرارة الفراق القديم ؟

ــ لن نلتقى قبل الوصول إلى منزل الحب .

ــ إنه بعيد فى الطريق .

ولكننا سنبلغه على أى حال .

ــ ألا تستطيع أن تفعل شيئا من أجلى ؟

ــ لا يمكننى العمل إلا بالطريقة التى تناسبنى ، ولعلك أيضا كذلك ؟

ــ نعم .

ــ رغبتى مثل رغبتك أو أشد ، ولكن لا حيلة لنا ..

ولاذت بالصمت فقلت بأسف :

ــ على أى حال فاللقاء آت لا ريب فيه ، ولا قيمة للزمن هنا .

ابتسمت ابتسامة لا تخلو من عتاب وتراجعت على مهل حتى تلاشت . ولم أستسلم هذه المرة للحزن كما فعلت فى عالمى الأول . وأشفقت من أن يصرفنى الحزن عن العمل فضاعفت من اجتهادى وحماسى . ولم آبه لطول الطريق وكثرة مشاكله . ولم أعد أخاف خيانة الزمن أو زحف الشيخوخة أو تهديد الموت . وإذا ببابى يدق مرة أخرى . توقعت بقلب خافق أن أرى وجهها ولكن القادم كان رجلا جديدا غير المرشد الذى دلنى على بيتى . قدم نفسه قائلا :

ــ أنا همزة الوصل بين هذا العالم والعالم القديم .

العالم القديم الذى نسيه تماما . وتطلعت إليه فى تساؤل فقال :

ـــ عطلت عملك ولكنى أؤدى واجبى .

ثم بنبرة حيادية :

ـــ ثمة من يناديك من أهل الأرض .

ماذا يريدون ؟، وما شأنى بهم ؟. وكيف لا يدركون خطورة العمل الذى تكرس له حياتنا ؟. وسألته :

ـــ من الذى ينادى ؟

ـــ ابنك أحمد .

آه .. الذى غادرت الدنيا وهو فى بطن أمه . وخفق قلبى على رغمى ، غير أنى سألته :

ـــ هل تنصحنى بتلبية ندائه ؟

فقال بحياد وأدب :

ـــ لا شأن لى بذلك ، اتخذ قرارك بنفسك .

نشب صراع فى نفسى ولكننى سرعان ما ملت إلى جانب مستسلما لهزيمة لم أتصورها من قبل . وهمست وأنا مثقل بشعور آثم :

ـــ أرى أن ألبى النداء .

وفى الحال وجدتنى أطلع على حجرة محكمة الإغلاق تسبح فى شبه ظلام ، تنبسط أمامى نصف دائرة من المقاعد يجلس فوقها نفر من الرجال بينهم ابنى أحمد ـــ عرفته ببصيرة داخلية ـــ يتخذ مجلسه فى الطرف الأيمن ، على حين استلقى الوسيط على فراش يفصله عن الحاضرين ستارة شفافة . همست بنعومة :

— أحمد .

فانتفض قائلا :

— أبى ؟!

— نعم ، أنا أبوك .

فسأل باهتمام ساخن :

— كيف حالك يا أبى ؟

— الحمد لله .

— كيف تجرى الحياة عندكم ؟

— لا لغة مشتركة تقرب واقعنا إليك ، ولكن كل شيء حسن .

فقال وهو يتنهد :

— الحياة هنا تبدو قاسية لا تعد بخير .

— عليكم أن تغيروها حتى تعد بكل خير .

— ولكن كيف ؟

— السؤال منك والجواب عندك ، وكل يحيا قدر همته .

— إنهم يتساءلون عما يخبئه لنا الغد ؟

— الغد يعلمه الله ويصنعه الإنسان .

— ألا يمكن أن نأمل فى معاونتك ؟

— قد فعلت يا بنى .

قال متشكيا :

— يتهمونني بأننى لا أحب إلا نفسى .

فقلت وأنا أهم بالذهاب :

ــ إنك لا تدرى كيف تحب نفسك .

ورجعت إلى بيتى أسرع من البرق . وهناك غلبنى شعور حاد بالأسف والندم . كيف هان علىّ أن أقطع عملى النبيل وأن أنشغل بهموم الدنيا التافهة ؟. وما أدرى إلا والمرشد الوقور يطالعنى بوجهه المشرق . تضاعف شعورى بالذنب وقلت :

ــ أعترف بأننى أخطأت ولكنى سأكفر عن ذنبى بمضاعفة العمل !

لم يعر قولى أى اهتمام و لم تتغير نظرته الصافية . وكما جاء ذهب دون أن ينبس بكلمة ، غير أنه خلف وراءه وردة لم أر مثلها من قبل كبيرة الحجم ، غزيرة الأوراق ، فتانة اللون ينتشر منها شذا طيب لم يصادفنى شىء فى مثل جماله وقوته . وخطر لى أنه لا يمكن أن تكون قد سقطت منه سهوا ، بل إنه يقينا لم يحضر إلا ليهديها إلىّ . وغمرتنى سعادة صافية ، وقلت لنفسى لا شك أن رحلتى ــ بخلاف ما توهمت ــ قد حازت الرضا ..

الغابة المسكونة

مرارا وتكرارا يشيرون إلى الغابة ويقولون لى محذرين :

ـــ لا تقترب منها فهى مسكونة بالعفاريت !

الغابة تقوم فى الطرف الجنوبى من صحراء مولد النبى بالعباسية . تبدو من بعيد جبلا من الخضرة الداكنة متعدد الرءوس ، طولها ثلاث محطات من محطات الترام وعرضها قريب من ذلك ، وقد يعبر سماءها دخان تحمله الرياح من المقلب الذى تحرق فيه الزبالة . ما نوع أشجارها الباسقة ، وما معنى وجودها فى ذلك المكان ، من الذى زرعها ولأى غرض زرعها ؟. وصحراء مولد النبى هى ملعب الكرة لصبيان العباسية ، تتسع للعديد من فرق الهواة يمارسون هوايتهم فى وقت واحد . ولما نفرغ من مبارياتنا الودية نرتدى جلابيبنا فوق أردية اللعب المعروفة ونرجع إلى الحى متجنبين الاقتراب من الغابة المسكونة . وجاوزت الصبا وولجت المراهقة وولعت بهوايات جديدة منها القراءة . وأشرقت على روحى استنارة تحفل بكل جديد وطريف. وتطايرت من رأسى ووجدانى خرافات كثيرة ، ولم أعد أومن بعفاريت الغابة ولكننى لم أستطع التحرر تماما من رواسب الخوف الكامنة فى أعماقى . وكنت أخلو إلى نفسى كثيرا فى الصحراء خاصة فى العطلات الصيفية ، أقرأ أو أتأمل أو أدخن السجائر بعيدا عن أعين الرقباء . وأرمى ببصرى من بعيد إلى الغاية فأبتسم ساخرا من ذكرياتى ولكننى أمكث بعيدا وأمضى من بعيد . وأضيق بموقفى وأتحداه وأطرح على نفسى سؤالا:

ـــ ألم يأن لك أن تكتشف الغابة ؟

بعد حوار غير قصير صممت على الإقدام والتنفيذ . ليكن فى العصر والشمس طالعة ، فالليل على أى حال غير مأمون . وكان مجلسى قريبا من محطة لضخ المياه يتحرك فى فنائها مهندسون وعمال . حييت أحدهم مرة وسألته عن سر الغابة فأخبرنى بأنها تابعة للمحطة ، وأنها زرعت قديما ، استغلالا للمياة الفائضة ، ولم تمتد أكثر من ذلك ليمكن إقامة الحفل السنوى بمولد الرسول . قلت لمحدثى :

ــ قالوا لنا إنها مأوى للعفاريت ..

فضحك الرجل قائلا :

ــ ما عفريت إلا ابن آدم .

ولأول مرة أمضى نحو الغابة . وقفت عند حافتها مستطلعا فرأيت الأشجار الشامخة صفوفا منسقة كالطوابير ، والعشب يغطى أرضها ويكسوها بخضرة غضة يانعة ، وثمة قناة تشقها بالعرض تتفرع عنها جداول متلألئة ، وتجاوب جوها بزقزقة العصافير فبثت فى الهواء عزفا وطربا . واستأنست بكل شيء فتقدمت غير هياب . لم أصادف إنسانا ولكنى ثملت بالوحدة والسلام . قلت لنفسى ياللخسارة ، ضاع عمر هدرا ، سامح الله الذين تصوروا أن تكون الجنة مأوى للعفاريت . وعند مركز الوسط تقريبا ترامت إلى ضحكة . الحق أن قلبى ارتجف . ولكن تلاشى خوفى فى ثانية . لا ريب أنها ضحكة ابن آدم . تفحصت ما حولى بعناية . لمحت على مبعدة حلقة من الشبان . وسرعان ما تبين لى أنهم ليسوا بالغرباء . جيران أو زملاء بالمدرسة . اتجهت نحوهم وأنا أحمحم . تحولت الرءوس نحوى حتى سلمت ووقفت باسما . بعد صمت سألنى

أحدهم :

ــ أهلا ، أى مصادفة سعيدة جاءت بك ؟

فتساءلت ضاحكا :

ــ وماذا جاء بكم أنتم ؟

ــ كما ترى ، نتسامر أو نقرأ أونتناقش !

ــ منذ زمن طويل ؟

ــ ليس قصيرا على أى حال .

قلت بعد تردد .

ــ يسرنى أن أنضم إليكم لو سمحتم ؟

ــ هل تحب القراءة والمناقشة ؟

ــ أحبهما من كل قلبى .

ــ تفضل إذا شئت .

منذ تلك اللحظة بدأت حياة جديدة يمكن أن أطلق عليها حياة الغابة . طيلة العطلة الصيفية نمضى كل يوم ساعتين على الأقل فى الحلقة . ومع زقزقة العصافير هبطت أفكار ورؤى . انتقلت الدنيا من حال إلى حال . ليس الأمر لهوا ولعبا . ولا رياضة عقلية تمضى إلى حالها . إنها تشير إلى مسيرة ومغامرة وتجربة محفوفة بكافة الاحتمالات . وكان من عادتى أن أجالس أبوى بعد العشاء . نستمع إلى الفونوغراف ، ونتبادل الحديث . وكنت قد احتفظت بسر الغابة فلم أطلع عليه أحدا . وكان أبواى آخر من أتصور أن أبوح لهما به . منذ زمن لا أذكر أوله استقرا فى أعماق طمأنينة أبدية ونعما بسلام دائم . ولا يخرج أبى عن إطاره إلا إذا

أغرته السياسة بأخبارها . يطيب له متابعة الأحداث والتعليق عليها .

ويوما ختم حديثه بقوله :

ــ ما أكثر عجائب هذا البلد !

فاندفعت أقول له :

ــ العجائب لانهاية لها .

فحدجني بنظرة متسائلة فقلت :

ــ إليك بعض الآراء بما يدور في مجتمعنا .

وتكلمت بإيجاز وتركيز فأنصت إليّ ذاهلا ثم هتف :

ــ أعوذ بالله ، ليس أصحاب هذه الآراء بآدميين ولكنهم عفاريت !

عند ذاك أدركت أنني أصبحت من عفاريت الغابة المسكونة .

في المدينة

١

رزق بولد أول ما رزق . سعد بالمولود سعادة رجل يقدس الأسرة والإنجاب ، ولا يعترف بالإنجاب إن لم يتوج بذكر . كان يقترب من أواسط العمر ، ويستقر فى دنيا النجاح كمحام نابه . والزواج كان تقليديا ، بنى على البحث والسؤال وحسن الاختيار ثم جاءت العاطفة فى حينها لتكمل البناء وتنمقه . غير أن إعصارا عصف بسعادته بلطمة واحدة . فيوما اصطحب زوجته إلى السينما ، ولما رجعا إلى مسكنهما بالحدائق لم يجد الوليد ولا الدادة . لم يكن من المألوف أن تخرج به ليلا ، خاصة ليل الشتاء ، فبدا الأمر مقلقا ، وسأل الرجل الجيران والبواب فلم يظفر بما يطمئنه ، وانتظر هو وزوجه على غير طائل ، ثم ذهب أخيرا إلى القسم . أدلى بالأقوال المطلوبة عن الدادة والمخدم الذى جاءه بها والطفل ذى العامين ، ثم رجع إلى مسكنه مهيض الجناح مشتت العقل ، ولم يغمض لهما جفن — هو وزوجه — حتى الصباح . وقامت الشرطة بتحريات واسعة ، وتردد عليها أياما متواصلة ، ولكن البحث لم يسفر عن نتيجة ، ولم يعثر على أثر للطفل أو للدادة . أيقن أن ابنه قد سرق لحساب الدادة من أجل أم عقيم ، هل ما زال على قيد الحياة ؟، وأى مرعى جديد يؤويه ويحتضنه ؟. وتعكر صفو الزوجين ، وكابدا آلاما مبرحة ، لعلها أشد من آلام الموت نفسه الذى يؤلف فى النهاية كقدر لا مفر منه .

ولكن مرور الأيام دواء على أى حال ، فسلم الرجل أمره لله وأذعن لمشيئته، وانهمك فى عمله غارقا فى هموم الحياة ومشاكلها . وقد رزق بعد ذلك ببنات ثلاث ، ولم يرزق بولد رغم اللهفة والحسرات ، وظل عند مولد كل بنت يتذكر ابنه الضائع فى خضم الحياة المصطخب . وتقدم فى عمله من نجاح إلى نجاح حتى عد بين النخبة من رجال القانون والقلة من أثرياء أصحاب المهن . وشيد لأسرته فيلا فى الهرم واقتنى سيارة مارسيدس ، واستمتع بالجاه والصيت العريض ، وتوج نجاحه بالمساهمة فى الحياة السياسية فتألق كنجم من نجوم المجتمع وقائد من قادة الفكر . ولم تمح ذكرى ابنه المفقود من ذاكرته . أجل لم يكن يذكره بصوت مسموع رحمة بأمه ، ولكنه كان يستحضره فى المناسبات ، فيقول لو بقى لى لكان اليوم يتأهب لامتحان الثانوية العامة ،أو لكان اليوم يختم دراسته الجامعية ، أو لربما كنا نحتفل بزواجه ، ثم يتمنى على الله أن تهيئ بيئته الجديدة له الدفء والحب والفلاح . وفى أثناء ذلك تزوجت بناته ، فانضم إلى الأسرة ثلاثة شبان فى سن ابنه المفترضة أو قريبين منها ، وصار له أحفاد من الذكور عوضوه عن فقده خيرا ، ولكن عقدة الابن الذكر لم تفارقه ، واقتضته إجراءات كثيرة لحفظ إرثه فى ذريته دون مشاركة أحد من إخوته الذين لم يكونوا فى حاجة إلى ماله . وعاش فى نظر الناس مثالا للنجاح والسعادة ، وفى باطنه مثالا للسعادة الواقعية التى لا تخلو من حزن أو ألم .

٢

أما الابن فقد نشأ وترعرع فى شقة صغيرة فى بيت قديم بمصر القديمة . إنه يذكر تماما أمه الطيبة المحبة ، كما يذكر أباه الكهل الذى كان يغادر البيت صباحا ويعود إليه مساء ، كما يذكر شاربه الغليظ وعصاه وبدلته الأنيقة ، حظى بحياة طيبة مريحة ، وفى السادسة دخل المدرسة ، ولم يجد فى جو البيت الطيب ما يشجعه على الدراسة ، وما لبث أن مات أبوه ولم يوفق فى الدراسة ، ثم ماتت أمه وهو فى الثامنة . وجد نفسه وحيدا بلا أهل . ولم تتركه جارته لوحدته فدعته للبيات مع أولادها . واتفقت هى وزوجها مع صاحب البيت على إخلاء الشقة وبيع الأثاث ، واقتضى العدل أن يحتفظا بالمال نظير إيواء الغلام والعناية به . ولكنه لم يحظ برقابة كافية فضاع مرة أخرى بين مسكنه الجديد والمدرسة حتى فصلته المدرسة . وتغيرت المعاملة مع الزمن فما إن بلغ العاشرة حتى وجد نفسه يعمل خادما فى البيت والسوق . ومن أول يوم كره عمله الجديد ورفضه ولكنه تحمله راغما . وأحيانا يتذكر حنان والديه فتدمع عيناه فى وحدته . ويوما خرج للتسوق فوجد الشوارع تموج بالكبار والصغار ، يصيحون فى غضب ، ويقذفون السيارات ومصابيح الشوارع بالطوب . روعه المنظر لأول وهلة ولكنه سرعان ما استجاب إليه بسرور خفى وشارك فيه . وفر فى الوقت المناسب مصمما فى الوقت نفسه على

عدم العودة إلى مخدومته . هام على وجهه ولكنه التقى بكثير من الهائمين وعند الضرورة تسول رزقه حتى عطف عليه منادى سيارات فاستغله فى التنظيف والحراسة نظير المأوى واللقمة . وكان الرجل رب أسرة وله أطفال دون سن العمل . وارتاح لعمله الجديد وسعد به وعاش يومه كله فى الهواء الطلق . ولما بلغ المراهقة وتدرب على عمله قرر الرجل أن يختار له موقعا مستقلا نظير جعل يومى . قال له :

— إنها فرصة مليحة لا تتاح إلا لسعيد الحظ ، ولا تتيسر إلا بالمال والفهلوة ..

ولكى يضمن ولاءه زوجه من كبرى بناته وهى عروس لا بأس بها شكلا وموضوعا بالرغم من أنها عوراء.واتخذ مسكنه مع حميه مستقلا بحجرة منفردة واستقبل حياة طيبة مثمرة .

٣

طيلة ذلك العمر جمعت مدينة واحدة بين الابن وأسرته الحقيقية ، أبيه وأمه وأخواته أما والداه الزائفان فقد نسيهما تماما ، ولم يخطر له ببال أنه ابن شرعى لوالدين آخرين . ومرات كثيرة اخترقت سيارة الأب الشارع الذى يعمل فيه الابن دون أن تقع عين أحدهما على الآخر . غير أنهما تقاربا مرتين فرأى الابن أباه ، وثمة احتمال أن الأب أيضا رأى ابنه . الأولى وقعت عندما كان الابن ما يزال صبيا مساعدا لحميه ، إذ ركن الأب سيارته المرسيدس فى الموقف وتركها لموعد هام مع النائب العمومى .

وقف الابن على مبعدة يسيرة ينتظر دورة فى العمل فرأى أباه وهو يغادر السيارة ويمضى لعبور الطريق . مرت عينا الرجل به فيما مرت بأشياء الطريق القائمة والمتحركة أما الابن فقد راعه منظر الرجل بجلاله وأبهته فخلف فى باطنه أثرا عميقا وأقبل على تنظيف السيارة بحماس . ولمح وهو يجلى زجاج النافذة سيدة فى الداخل فتنته فخامتها رغم كهولتها ولكنها كانت مستغرقة فى قراءة جريدة فلم تلتفت نحوه . الثانية تمت فى سياق المعركة الانتخابية فقد أقام الأستاذ سرادقا شعبيا ليوزع حلاوة المولد على الكادحين لمناسبة حلول المولد النبوى قبيل الانتخابات . فى ذلك الوقت كان الابن قد استقل وتزوج . ووقف يتفرج دون أن يشترك مع الجالسين . جاء الأب متبوعا بنفر من أعوانه وراح يوزع علب الحلاوة بنفسه ويتقبل الدعاء . وتذكره الابن وانبهر به مرة أخرى . ولما فرغ الرجل من مهمته وغادر السرادق اقترب الشاب منه مدفوعا بانجذابه وقال :

ـــ هل أنبه السائق للحضور بالسيارة ؟

ولكن أحد الأعوان كان قد بادر للقيام بالمهمة ، فنظر الأب نحوه نظرة عابرة وقال :

ـــ شكرا ولا داعى للإزعاج .

فصادف قوله من نفس الابن منتهى الرضا .

الفهرس

صفحة

رقم الإيداع : ١٩٨٩/٨١١٩
الترقيم الدولى : ٠ ـ ٠٥٥٩ ـ ١١ ـ ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٥٥ قرشا